مكتبة

عَلِي بن أحمد بن حزم الأندلسي القرطبي

مُداواةُ النُّفوسِ وتهذيبُ الأخلاقِ

الأخلاقُ والسِّيرُ

حقّقه وعلّق عليه
د. محمّد مطر سالم بن عابد الكعبيّ





مُداوَاةُ ٱلنُّفُوسِ
وَ
تَهۡذِيبُ ٱلأَخۡلَاقِ

(الأَخۡلَاقُ وَٱلسِّيَرُ)

إهداء لـ ..

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله





الطبعة الخامسة

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

مكتبة
t.me/soramnqraa

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ٦٥٠١/١١٣

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

مُدَاوَاةُ ٱلنُّفُوسِ
وَ
تَهْذِيبُ ٱلأَخْلَاقِ

(الأَخْلَاقُ وَٱلسِّيَرُ)

تأليف

عَلِيّ بن أَحمد بن حَزْمٍ الأَنْدَلُسِيّ ٱلقُرْطُبِيّ

384 - 456 هـ
994 - 1064 م

حقّقه وعلّق عليه

د. مُحَمَّد مَطَر سَالِم بن عَابِد الكَعْبِيّ

abu_khalifa5@yahoo.com



دمشق



مقدمة التحقيق

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه.

وبعد: فإنّ هذا الكتابَ خلاصةُ عبقريةٍ فذّةٍ ملأتِ الدّنيا، وشغلتِ الناسَ في عصرِها وما تلاه، أودعَ فيه مؤلِّفُه أبو محمد ابن حزمٍ الأندلسي[1] تجاربَه في الحياةِ التي عاشها متقلِّباً بين نعماء وضراء، بين جاهٍ عريقٍ مديدٍ، وأيامٍ صعبةٍ، وهو شريدٌ طريدٌ بين عِلّيةِ القوم وسادةِ البلدِ ورجالاتِ الدولة، وبين عامّةِ الناسِ في أعمالِهم وأخلاقِهم وسلوكِهم وتقلّباتهم وأحوالِهم وطموحاتِهم وغاياتِهم، ويرى ما بينهم مِنْ تقاطع وتشابه

(1) انظر الملحق: خريطة المدن الأندلسية التي هي الآن إسبانية والبرتغال.

واختلاف وتضادّ، فيستخرجُ ثوابتَ النفس الإنسانية، وما يمكِنُ أن يتغيَّرَ فيها ويتبدّلَ، وما يمكن إصلاحه.

ويرى دورانَ الدُّنيا بأهلِها حيناً بعد حين، وينظرُ إلى الآخرةِ، وما أعدّ الله لعباده من الجزاء المقيم، ويزنُ أحوالَ الناسِ بميزان القرآن والسنة بعقله الثاقب، ونظرِه البعيدِ، فيسطِّرُ خلاصةَ ذلك في كلمات معدودات، أو أسطرٍ قليلاتٍ بلغةٍ عاليةٍ، وأسلوبٍ أخّاذ نفّاذ، لتبقى هذه الكلماتُ أشبه ما تكونُ بدستور يتّخذه العلماءُ، ويهتدي به العقلاءُ، فلا يكرّرون تجربة سبقت، ولا يقعونَ في أخطاءٍ أضرّتْ بغيرهم، ويمكنهم أن يتجنّبوها، ويرونَ معارِجَ الرقي الإنساني فيقتدون فيها، ويصعدون إلى عليائها.

لقد رأى ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ الاستقامةَ في السلوكِ أثرٌ من آثارِ استقامةِ النفسِ والفكرِ، ويقدِّمُ لها الدواءَ الناجع ليكونَ الناسُ على بصيرةٍ وهدًى، فأفرغَ في هذا الكتابِ كلَّ ما يستطيعُ مِنْ هذا الدواءِ في نظرِه، وقدّمه للراغبينَ، محتسباً في ذلك، طالبا الثواب من الله تعالى.

إنّ هذا الكتاب فريدٌ في بابه، عظيمُ النفعِ، فِكْرُ إمامٍ كبيرٍ مترعٍ من الثقافة الإسلامية وغيرِ الإسلاميةِ، ولهذا حرصتُ على تقديمه في هذه الفترة التي تحتاجُ فيها الأرواحُ والنفوسُ إلى غذاءٍ نقيٍّ وبلسم صحي، بل إنَّ الحاجةَ إلى هذا الكتابِ وأمثاله حاجةٌ دائمةٌ لكلِّ العصورِ ولجميع الناس. وقد أسميتُهُ (**مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق**) اقتباساً من كلام مصنفه في فصله الأول وغيره مما جاء في ثنايا الكتاب، لأنّ هذا العنوانَ أدلُّ على المعاني والمضامين التي أودعها فيه.

● **طبعات الكتاب:**

لم يحظَ كتابٌ من كتب ابن حزم بما حظي به هذا الكتاب، فقد طبع أكثر من سبع عشرة طبعة على امتداد قرن من الزمان؛ مرة باسم (الأخلاق والسير) ومرة باسم (مداواة النفوس)، وهذا بيانٌ بهذه الطبعات:

1 ـ طبعة مصطفى القباني الدمشقي، مطبعة النيل القاهرة، عام 1323هـ = 1906م.

2 ـ طبعة محمد هاشم الكتبي الدمشقي، في القاهرة، عام 1324هـ = 1907م.

3 ـ طبعة أحمد عمر المحمصاني البيروتي، في القاهرة، عام 1325هـ = 1908م.

4 ـ الطبعة الجمالية، بمصر، عام 1332هـ = 1913م.

5 ـ طبعة محمد أفندي أدهم، القاهرة، بدون تاريخ.

6 ـ طبعة علي محمود حطاب، الإسكندرية، بدون تاريخ.

7 ـ طبعة الدكتور إحسان عباس الأولى، ضمن رسائل ابن حزم، دار المعارف مصر 1956م.

8 ـ طبعة ندى توميش، بيروت 1961م.

9 ـ طبعة محمد عبد الله السمان، ضمن سلسلة الثقافة الإسلامية 1962م.

10 ـ طبعة محمد فؤاد البتاتي، ضمن سلسلة الروائع، بيروت 1969م.

11 ـ طبعة عبد الرحمن عثمان، المدينة المنورة 1970م.

12 ـ طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت 1978م.

13 ـ طبعة إيفا رياض أبسالا، السويد 1980م، وأعيد طبعها في دار ابن حزم بمراجعة وتعليقات الأستاذ عبد الحق التركماني.

14 ـ طبعة الدكتور إحسان عباس الثانية، ضمن رسائل ابن حزم، ط المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1987م.

15 ـ طبعة الدكتور طاهر مكي، دار المعارف القاهرة، 1992م.

16 ـ طبعة الأستاذ محمد أديب الجادر، دار البشائر بدمشق، 2006م.

17 ـ طبعة أبو مسلم الجزائري، دار ابن حجر بدمشق، عام 1430هـ = 2009م.

لكنّ أشهر هذه الطبعات هي (1، 13، 14).

• **مخطوطات الكتاب:**

عرفت للكتاب خمس نسخٍ خطية وهي:

1 ـ نسخة الظاهرية الأولى، ورقمها (2182) آداب (10) تقع في (31) ورقة.

2 ـ نسخة الظاهرية الثانية، ورقمها (2182) آداب (11) تقع في (63) ورقة.

3 ـ نسخة السليمانية، ورقمها (2704) من محفوظات مكتبة شهيد علي باشا، تقع في (25) ورقة، ورمزت لها بحرف (ش).

4 ـ نسخة جامعة إستانبول، رقم (2704)، تقع في (64) ورقة.

5 ـ نسخة الأزهرية ورقمها (411)، وهي أقدم النسخ وأتمها وأصحها، ويندر فيها الخطأ، مسطرتها 14,5 - 21,5 خطها أندلسي جميل، مضبوط بالشكل الكامل، عدد الأسطر في الصفحة (13) سطرا، وعدد الكلمات في السطر (10) كلمات، وتبدأ الفِقْرات بخط سميك.

جاء في الصفحة الأولى من الكتاب بعد البسملة والصلاة على رسول الله ﷺ: **كتاب الأخلاق والسير**، وفي الصفحة الأخيرة: **تمّ كتابُ الأخلاقِ والسيرِ، والحمدُ للهِ**.

كما جاء تمليكٌ على ورقة الغلاف بخط مشرقي

يخالف خط الكتاب: «. . . تولف أحمد بن محمد بن محمد بن سعيد الأندلسي عشية يوم الأربعاء بعد . . . لنفسي للتاسع. .. اثنتين وتسعين وستمئة، وكتبه الفقير إلى الله. .. محمد بن محمد. . .».

وهذا يدل على أنَّ الكتابَ منسوخٌ قبل سنة 692هـ.

ولمّا كان الكتابُ ثابتَ النسبةِ إلى ابن حزم لم أُشْغِلْ نفسي بإثبات ذلك، لأنه تضييع لوقتي ولوقت القارئ العزيز.

● **عملي في الكتاب:**

1 ـ اعتمدتُ النسخةَ الأزهريةَ أصلاً، ورمزتُ لها بالحرف (ز) فأثبتُّ نصَّها حرفاً حرفاً، مع الضبطِ الذي فيها، ولم أثبتْ مِنِ اختلافِ النسخِ إلا ما دعتْ إليه الحاجةُ، وأفادَ القارئ.

2 ـ شرحتُ ما يحتاجُ إلى شرحٍ من الغريب.

3 ـ وضعتُ لفقرات الكتاب عناوين أخذتها من كلام ابن حزم نفسه، أو ملخصةً من كلامه، وهذا عملٌ جديدٌ لم يسبقني إليه أحدٌ.

4 ـ وشّيتُ الكتاب بتعليقاتٍ أرجو أن تنالَ رضا القارئ الكريم.

5 ـ ألحقت بالكتاب تعريفاً موجزاً بابن حزم الأندلسي ص216، ولمن أرادَ أن يعرفَ المزيدَ عن ابن حزم، فليرجعْ إلى كتابي (منهج الاستدلال الفقهي عند ابن حزم وابن عبد البرِّ).

أسأل الله تعالى أن يجازي مؤلِّفَه خيرَ الجزاء، وأن يكتبَ لنا الأجرَ، وينفعَ به القراء، إنّه سميع مجيب.

أبو ظبي 20 رمضان 1432هـ **د. محمد مطر سالم الكعبي**

20 أغسطس 2011م



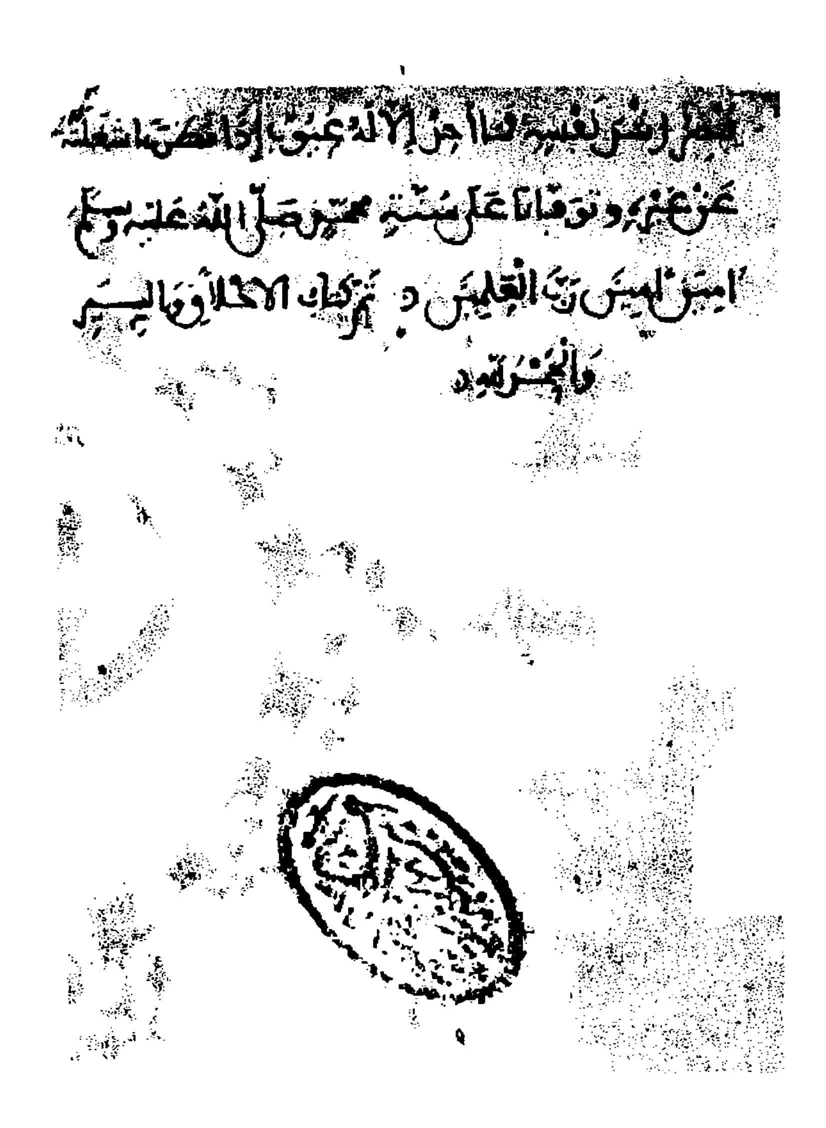
صورة الغلاف (ز)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

كتاب الأخلاق والسير

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه
الحمد لله على عظيم منته وصلى الله على محمد عبده وخاتم
أنبيائه ورسله وسلم تسليما وأبرأ إليه تعالى من الحول
والقوة وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع
أنواع المخاوف والمكاره ويخلص في الأخرى من كل هول
وضيق أما بعد فإني جمعت في كتابي هذا
معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور
الأيام وتعاقب الأحوال بما منحني عز وجل من التهمم
بتصاريف الزمان والإشراف على أحواله حتى

صورة الصفحة الأولى من المخطوط (ز)



[illegible] نفسه فلا [illegible] ما شغله

عن غيره وتوفقنا على سنة محمد صلى الله عليه وسلم

آمين آمين رب العالمين . تم كتاب الأخلاق والسير

والحمد لله وحده

الصفحة الأخيرة من المخطوط (ز)

[٢/أ] بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلَّى اللهُ على سيدنا محمَّدٍ وعلى آله

قال أبو محمَّد عليُّ بن أحمد بن حَزْمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

المقدمة

• الحَمْدُ للهِ على عظيمِ مِنَنِهِ، وصلَّى اللهُ على محمَّدٍ؛ عبدِه وخاتمِ أنبيائِهِ ورسلِهِ، وسلَّمَ تسليماً.

وأبْرأُ إليه ـ تعالى ـ من الحَوْلِ والقوَّةِ، وأستعينُه على كُلِّ ما يَعْصِمُ في الدنيا من جميعِ المَخَاوفِ والمَكْرَهَةِ، ويُخلِّصُ في الأخرى من كلِّ هَوْلٍ وَمَضِيقٍ.

• **أمَّا بعدُ**؛ فإنِّي جمعتُ في كتابي هذا معانيَ كثيرةً، أفادنيها واهبُ التَّمييزِ تعالى بمرورِ الأيام، وتعاقبِ الأحوالِ، بما منحني عَزَّ وَجَلَّ مِنَ التَّهَمُّمِ[1] بتصاريفِ الزَّمانِ، والإشرافِ على أحوالِهِ، حتَّى [2/ب]

---

(1) **التهمم**: الاهتمام والعناية.

أنفقتُ في ذلكَ أكثرَ عُمُرِي، وآثرتُ تقييدَ ذلكَ بالمطالعةِ له، والفكرةِ فيه، على جميعِ اللَّذَّاتِ التي تَميلُ إليها أكثرُ النُّفوسِ، وعلى الازديادِ في فضولِ المال.

• وزَمَمْتُ(1) كلَّ ما سَبَرتُ(2) من ذلكَ بهذا الكتابِ(3)، لينفعَ اللهُ تعالى [به](4) مَنْ شاءَ من عبادِهِ، مِمَّن يصلُ إليه بما أتعبتُ فيه نفسي، وجَهَدْتُها فيه، وأطلتُ فيه فكري، فيأخذَه عفواً، وأهديتُه إليه هنيئاً، فيكون ذلك أفضلَ له من كنوزِ المالِ، وعَقْدِ الأملاكِ؛ إذا تدبَّرَهُ، ويَسَّره اللهُ تعالى لاسْتِعْمالِهِ.

• وأنا راجٍ مِنَ اللهِ تعالى في ذلك أعظمَ الأجرِ؛ لنِيَّتي في نَفْعِ عبادِهِ، وإصلاحِ ما فَسَدَ مِنْ أخلاقِهم، ومداواةِ عِلَلِ نفوسهم، وبالله أَستَعِينُ.



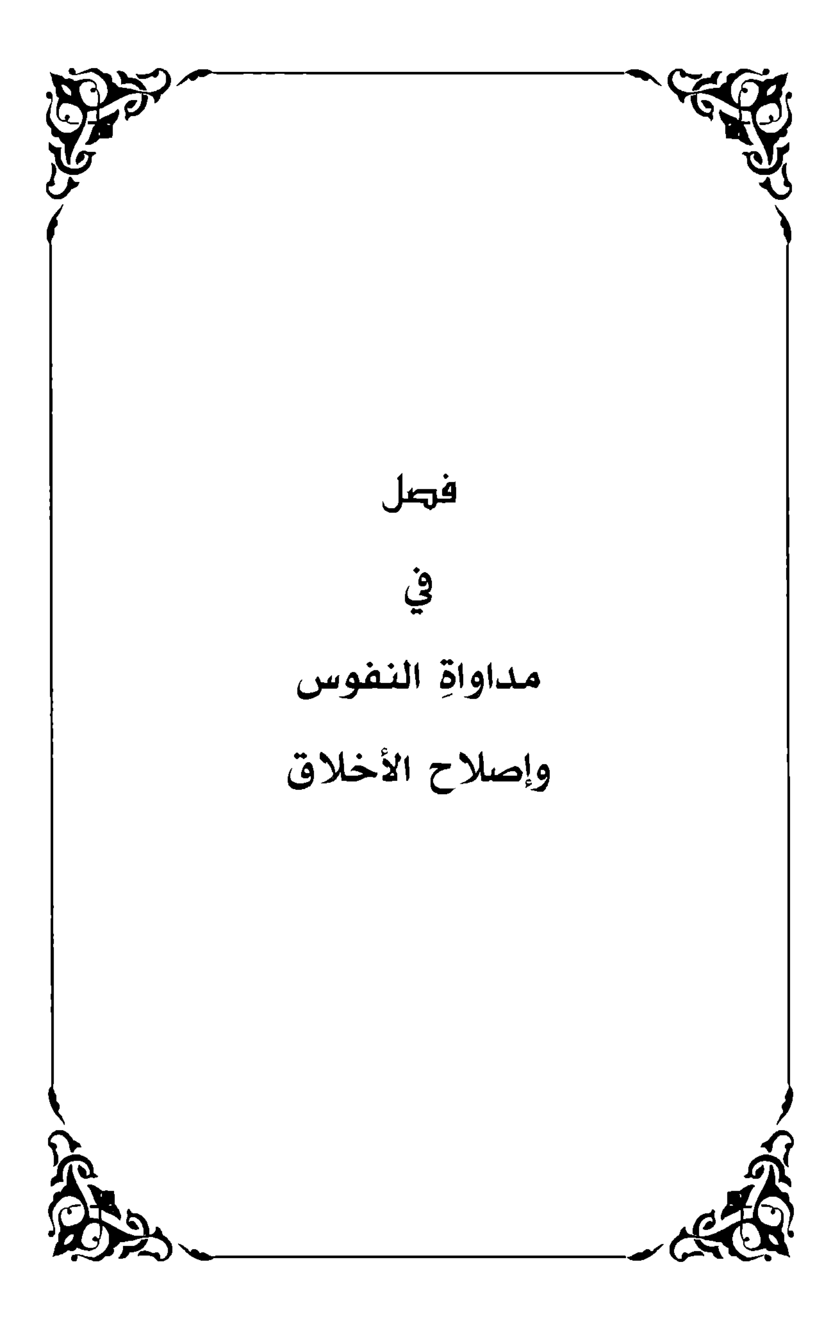


(1) زممت: جمعت.

(2) السَّبْرُ: البحث والاستقراء.

(3) في (ز): بالكتابة، والمثبت من (ش).

(4) زيادة من (ش).



فصل

في

مداواةِ النفوس

وإصلاح الأخلاق

اللذة العظمى

• [3/أ] لَذَّةُ العاقلِ بتَمْيِيزه، ولَذَّة العالمِ بعِلْمِه، ولَذَّةُ الحكيم بحِكْمتِه، ولَذَّةُ المُجْتهدِ لله تعالى باجْتهادِهِ = أَعظمُ مِنْ لذَّةُ الآكل بأكله، والشَّاربِ بشربه، والواطئِ بوَطْئِهِ(1)، والكاسبِ بكَسْبه، واللَّاعبِ بلعبِهِ، والآمرِ بأمْرِه.

وبرهانُ ذلك: أنَّ الحكيمَ، والعالمَ، والعاقلَ، والعاملَ؛ واجدونَ لسائرِ اللذّاتِ الَّتي سمَّيْنا كما يَجدُها المُنْهمِكُ فيها، ويُحِسُّونها كما يُحِسُّها المُقْبِلُ عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلبَ الفضائل عليها. وإنَّما يَحْكُمُ في الشَيْئَيْنِ مَنْ عرفهما، لا مَنْ عرفَ أحدَهما، ولم يَعْرفِ الآخرَ.

---

(1) **الوطئ**: النكاح.

العمل لله

● إذا تعقَّبتَ الأمورَ ـ كلَّها ـ فَسَدَتْ عليك، وانتهَيْتَ في آخرِ فِكْرتِكَ باضمحلالِ جميعِ أحوالِ الدُّنْيا إلى أَنَّ الحقيقةَ إنَّما هي العملُ للآخرة فقط.

لأنَّ كلَّ أملٍ ظَفَرْتَ به فعُقْباه حُزْنٌ؛ إمَّا بذهابِهِ عَنْكَ، وإمَّا [3/ب] بذهابِكَ عنه، ولا بُدَّ من أحدِ هذَيْن السَّبيلَيْن؛ إلّا العملَ للهِ ﷻ، فعُقباهُ على كلِّ حالٍ سرورٌ في عاجلٍ وآجلٍ.

أمَّا في عاجلٍ؛ فقِلَّة الهمِّ بما يَهتمُّ به النَّاسُ، وأنَّك به مُعظَّمٌ من العدوِّ والصَّديقِ.

وأمَّا في الآجلِ فالجَنَّـةُ.

طرد الهمِّ مطلوب الناس جميعاً

● تَطلَّبتُ غرضاً استوى النَّاسُ كلُّهم في استحسانِهِ وفي طلبِهِ، فلم أجدْه إلّا واحداً، وهو طردُ الهمِّ.

فلمّا تدبّرتُهُ علمتُ أنّ الناسَ كلَّهم لم يستووا في استحسانِهِ فقط، ولا في طلبِهِ فقط، ولكنْ رأيتُهم ـ على اختلافِ أهوائهم ومطالبِهم، وتَبايُنِ هِمَمِهِم وإرادتهم ـ

لا يتحرَّكُون حركةً أصلاً إلَّا فيما يرجونَ به طَرْدَه، ولا يَنْطقون بكلمةٍ أصلاً إلَّا فيما يُعانونَ به إزاحَتَه عن أنفسهم، فَمِنْ مُخْطِئٍ وَجْهَ سبيله، ومِنْ مُقاربٍ للْخطأ، ومِنْ مُصيبٍ، وهو الأقلُّ من النَّاسِ في الأقلِّ من أمورِهِ.

فطَردُ الهمِّ [4/أ] مذهبٌ قد اتفقتِ الأممُ كلُّها ـ مُذْ خلقَ اللهُ تعالى العالَمَ إلى أن يتناهَى عالمُ الابتداء، ويعاقِبُه عالمُ الحسابِ ـ على ألّا يَعْتَمِدُوا بسعيهم شيئاً سواه.

• وكلُّ غرضٍ غيرِهِ ففي النَّاسِ مَنْ لا يَسْتَحْسِنُهُ:

إذْ في **النَّاسِ** مَنْ لا دِينَ له، فلا يعملُ للآخرةِ.

وفي **النَّاس** مِنْ أهلِ الشَّرِّ مَنْ لا يريدُ الخيرَ ولا الأمنَ ولا الحقَّ.

وفي **النَّاسِ** مَنْ يُؤْثرُ الخمُولَ بهواه وإرادته على بُعْدِ الصَّوْتِ(1).

وفي **النَّاس** مَنْ لا يريدُ المالَ، ويُؤْثِرُ عدمَه على

---

(1) **الصوت**: الصيت والشهرة.

وجودِهِ، ككثيرٍ من الأنبياء عليهم السلام، ومَنْ تلاهم مِن الزُّهَّادِ والفَلاسِفةِ.

ومن **النَّاس** مَنْ يُبْغِضُ اللَّذاتِ بطَبْعِهِ، ويَسْتَنْقِصُ طالِبَها؛ كَمَنْ ذكرنا مِنَ المُؤْثرينَ فَقْدَ المالِ على اقتنائِهِ.

ومن **النَّاس** مَنْ يُؤثِرُ الجهلَ على العِلْمِ، كأكثرِ مَنْ ترى مِنَ العامَّةِ.

وهذه هي أغراضُ [4/ب] النَّاسِ التي لا غرضَ لهم سواها، وليس في العالَم ـ مُذْ كانَ إلى أَنْ يَتَناهى ـ أَحدٌ يستحسِنُ الهمَّ، ولا يريدُ طردَه عن نفسِهِ!.

العمل للآخرة يطرد الهم

● فلمَّا استقرَّ في نفسِي هذا العِلْمُ الرَّفيعُ، وانكشفَ لي هذا السِّرُّ العجيبُ، وأنار الله تعالى لفكري هذا الكَنْزَ العظيمَ؛ بَحَثْتُ عن سبيلٍ مُوصلةٍ ـ على الحقيقةِ ـ إلى طَرْدِ الهمِّ ـ الذي هو المطلوب النَّفِيسُ ـ الذي اتَّفقَ جميعُ نوعِ الإنسانِ ـ الجاهلِ منهم والعالم، والصَّالح والطَّالحِ ـ على السَّعي له. فلم أجدْها إلَّا التَّوجُّهَ إلى اللهِ تعالى بالعَمَلِ للآخرةِ.

وإلَّا فإنَّما طَلَبَ المالَ طُلَّابُه، ليَطْرُدُوا به عن أنفسِهم همَّ الفَقْرِ.

وإنَّما طلبَ الصِّيتَ مَنْ طَلَبه؛ ليطردَ بها عن نفسِهِ هَمَّ الاستعلاءِ عليها.

وإنَّما طلبَ اللَّذاتِ مَنْ طلبها، ليطردَ بها عن نفسِهِ هَمَّ فَوْتها.

وإنَّما طلبَ العِلْمَ مَنْ طلبَه؛ ليطردَ به [عن نفسه][1] هَمَّ الجَهْلِ.

وإنَّما [5/أ] هشَّ إلى سماعِ الأخبارِ، ومُحادَثةِ النَّاسِ مَنْ يطلبُ ذلك؛ ليطردَ بها عن نفسِهِ هَمَّ التَّوحُّدِ[2]، ومَغِيبِ أحوالِ العالمِ عنه.

وإنَّما أكلَ مَنْ أكلَ، وشَرِبَ من شربَ، وَنَكَحَ مَنْ نكحَ، ولَبِسَ من لبسَ، ولَعِبَ من لعبَ، واكْتَنَّ من اكْتَنَّ[3]، ورَكِبَ من ركبَ، ومشى مَنْ مشى، وتودَّعَ مَنْ

(1) زيادة يقتضيها السياق ليطرد الكلام مع ما سبقه.

(2) **التوحد**: الوحشة.

(3) **اكتنَّ**: استتر.

تودَّع؛ ليطردوا عن أنفسِهم همَّ أضْدادِ هذه الأفعالِ، وسائِرَ الهُموم.

• وفي كلِّ ما ذكرنا لِمَنْ تدبَّرَهُ هُمومٌ حادثةٌ لا بُدَّ من عوارضَ تعرِضُ في خلالها، وتَعذُّرِ ما يَتَعَذَّرُ منها، وذهابِ ما وُجِدَ منها، والعجز عنه ببعض الآفات الكائنة، وأيضاً نتائجُ سوءٍ تَنْتج بالحصولِ على ما حصلَ عليه مِنْ كلِّ ذلك؛ من خوفِ مُنافسٍ، وطَعْنِ حاسدٍ، أو اختلاسِ راغبٍ، أو اقتناءِ عَدوٍّ، مع الذَّمِّ والإثم، وغيرِ ذلك [5/ب].

• ووجدتُ العملَ للآخرة سالماً من كلِّ عَيْبٍ، خالصاً من كلِّ كَدَرٍ، موصلاً إلى طَرْدِ الهمِّ على الحقيقة.

• ووجدتُ العامِلَ للآخرة إن يُنَلْ[1] بمكروهٍ في تلكَ السبيل؛ لم يهتمَّ، بل يُسَرّ، إذ رجاؤه في عاقبةِ ما يُنَالُ به عَوْنٌ له على ما يطلبُ، وزائدٌ في الغرضِ الذي إيَّاه يَقْصدُ.

---

(1) **يُنَل**: يُصَبْ.

• ووجدتُهُ إنْ عاقَهُ عمَّا هو بسبيله عائِقٌ لم يَهتمَّ، إذْ لَيسَ مُؤاخذاً بذلك، فهو غيرُ مؤثِّرٍ فيما يَطْلبُ.

• ووجدتُهُ إنْ قُصِدَ بالأذى سُرَّ، وإن نَكَبَتْهُ نَكْبَةٌ سُرَّ، وإنْ تَعِبَ فيما سلكَ فيه سُرَّ، فهو في سرورٍ مُتَّصلٍ أبداً، وغيرُه بخلافِ ذلك أبداً.

• فاعلم أنَّه مطلوبٌ واحدٌ، وهو طردُ الهمِّ، وليس له إلَّا طريقٌ واحدٌ وهو العملُ لله، فما عدا هذا فضلالٌ وسُخْفٌ.

ابذل نفسك في ذات الله ﷻ

• لا تبذلْ نفسَكَ إلَّا فيما [6/أ] هو أعلى منها، وليس ذلك إلَّا في ذات الله ﷻ؛ في دعاءٍ إلى حقٍّ، وفي حِمَايةِ الحَرِيمِ، وفي دَفْعِ هَوانٍ لم يوجبْه عليكَ خالقُكَ ﷻ، وفي نَصْرِ مظلومٍ.

وباذِلُ نفسِهِ في عَرَضِ دنيا كبائعِ الياقوتِ بالحصى.

الدين والمروءة

• لا مُروءَةَ لِمَنْ لا دينَ له.

ثمن العاقل

• العاقلُ لا يرى لنفسه ثَمناً إلَّا الجنَّةَ.

حبالة إبليس

• لإبليسَ في ذمِّ الرِّياءِ حِبالَةٌ[1]؛ وذلك أنَّه رُبَّ مُمْتَنعٍ مِنْ فعلِ خَيْرٍ خوفَ أنْ يُظَنُّ به الرِّياءُ. [فإذا اطَّرَقَكَ منه هذا؛ فامضِ على فعلِكِ، فهو شديدُ الألمِ عليه][2].

باب العقل والراحة

• بابٌ عظيمٌ من أبوابِ العقلِ والرَّاحةِ؛ وهو اطِّراحُ المبالاةِ بكلامِ النَّاس، واستعمالُ المبالاةِ بكلامِ الخالقِ ﷻ، بل هذا بابُ العقلِ كلِّه، والرَّاحةِ كلِّها.

لا سلامة من طعن الناس

• مَنْ قدَّرَ أنَّه يسلمُ مِنْ طعنِ النَّاس وعَيْبِهم فهو مجنونٌ.

---

(1) **الحِبالة**: الشبكة.

(2) زيادة من (ش).

ذمُّ الناس ومدحُهم

• مَنْ حَقَّق النَّظرَ، وراضَ نفسَه على السُّكُونِ إلى الحقائقِ ـ وإنْ آلمتْها في أوَّلِ صَدْمةٍ ـ كان اغتباطُه بذمِّ النَّاسِ إيَّاه أشدَّ وأكثرَ من اغتباطِهِ بمدحِهِم إيّاه، لأنَّ مدحَهُم إيَّاه: إنْ كانَ **بحقٍّ**؛ وبلَغَه مدحُهُم له؛ أسرى ذلك فيه العُجْبَ، فأفسدَ بذلك فضائِلَه، وإنْ كان **بباطلٍ** فبلغَه فسرَّه، فقد صارَ مسروراً بالكذبِ، وهذا نقصٌ شديدٌ.

• وأمَّا ذمُّ النَّاسِ إيَّاه: فإنْ كانَ **بحقٍّ** فبلغَه؛ فَرُبَّما كان ذلك سبباً إلى تَجَنُّبِه ما يُعابُ عليه، وهذا حظٌّ عظيمٌ؛ لا يزهَدُ فيه إلَّا ناقصٌ، وإنْ كانَ **بباطلٍ** فبلغَهُ فصَبَرَ؛ اكتسبَ فضلاً زائداً بالحِلْمِ والصَّبْرِ، وكان مع ذلك غانماً، لأنَّه يأخذُ حسناتِ مَنْ ذمَّه بالباطلِ، فيحظى به في دارِ الجزاءِ أحوجَ ما يكون إلى النَّجاةِ بأعمالٍ لم يَتْعَبْ فيها ولا تكلَّفَها، وهذا حظٌّ عَظِيمٌ؛ لا يزهدُ فيه إلَّا مجنونٌ.

• وأمَّا إنْ لم يبلغْهُ مَدْحُ الناسِ [7/أ] إياه، فكلامُهم وسكوتُهم سواءٌ، وليس كذلك ذمُّهُم إيَّاه، لأنّه غانمٌ للأجرِ على كلِّ حالٍ، بلغه ذمُّهم أو لم يَبْلُغه.

● ولولا قولُ رسول الله ﷺ في الثَّناءِ الحسن: «**ذلك**[1] **عاجِلُ بُشْرى المُؤْمِنِ**»[2]؛ لوجبَ أنْ يرغبَ العاقِلُ في الذَّمِّ بالباطلِ أكثرَ مِنْ رغبتِهِ في المدحِ بالحقِّ، ولكنْ إذ جاءَ هذا القولُ فإنَّما تكونُ البشرى بالحقِّ لا بالباطلِ، فإنَّما تجبُ البشرى بما في المَمْدوحِ لا بنَفْسِ المَدْحِ.

الأنس بالفضائل والرذائل

● ليسَ بين الفضائلِ والرَّذائل، ولا بَيْنَ الطَّاعاتِ والمعاصي؛ إلَّا نِفارُ النَّفسِ وأُنسُها فقط.

فالسعيدُ مَنْ أَنِسَتْ نفسُه بالفضائلِ والطَّاعاتِ، ونَفَرتْ عن الرَّذائلِ والمعاصي.

والشَّقيُّ مَنْ أنِسَتْ نفسُه بالرَّذائلِ والمعاصي، ونفرتْ عن الفضائلِ والطَّاعاتِ، وليس هاهنا إلَّا صُنْعُ الله تعالى وحِفْظه [7/ب].

---

(1) في صحيح مسلم: (**تلك**).

(2) رواه مسلم (2642).

طلاب الآخرة وطلاب الدنيا

• طالبُ الآخرةِ ـ ليفوزَ في الآخرةِ ـ مُتَشَبِّهٌ بالملائكة.

وطالبُ الشَّرِّ متشبِّهٌ بالشَّياطين.

وطالبُ الصِّيتِ والغَلَبةِ متشبِّهٌ بالسِّباع.

وطالبُ اللَّذاتِ متشبِّهٌ بالبهائم.

وطالبُ المال ـ لعَيْنِ المالِ؛ لا لِيُنْفِقَهُ في الواجبات والنَّوافل المحمودة ـ أَسْقطُ وأرذلُ مِنْ أنْ يكونَ له في شِيءٍ من الحيوانِ شِبْهٌ، ولكنَّه يُشْبه الغُدْرانَ[1] التي في الكهوفِ في المواضعِ الوَعِرةِ، لا يَنْتَفِعُ بها شيءٌ من الحيوانِ [إلّا ما قلَّ من الطائر، ثم تُجَفِّفُ الشمسُ والريحُ ما بقيَ منها، كذلك يُجْتَاحُ[2] المالُ الذي لا يُنْفَقُ في معروفٍ][3].

---

(1) **الغُدْران**: جمع غدير: القطعة من الماء يغادرها السيل.

(2) **يجتاح**: يهلك.

(3) زيادة من (ش).

العاقل يتميّزُ بعلمه وعمله

• فالعاقلُ لا يَغْتبِطُ بصفةٍ يَفُوقُه فيها سَبُعٌ أو بهيمةٌ أو جمادٌ، وإنَّما يغتبط بتقدُّمه في الفضيلةِ التي أبانه الله تعالى بها عَنِ السِّباعِ والبهائمِ والجماداتِ، وهي **التَّمْيِيز**، الذي يُشارِكُ فيه الملائكةَ.

فمَنْ **سُرَّ بشجاعته** التي يضعُها في غير حقِّها للهِ ﷻ فليعلمْ أنَّ النَّمِرَ أَجرأُ [8/أ] منه، وأنَّ الأسدَ والذِّئبَ والفيلَ أَشْجعُ منه.

ومن **سُرَّ بقوةِ جسمِه**؛ فليعلمْ أنَّ البغلَ والثَّورَ والفيلَ أقوى منه جِسْماً.

ومَنْ **سُرَّ بحملِهِ الأثقالَ**؛ فليعلمْ أنَّ الحمارَ أحملُ منه.

ومَنْ **سُرَّ بسرعةِ عَدْوِه**، فليعلمْ أنَّ الكلبَ والأرنبَ أَسْرعُ عَدْواً منه.

ومَنْ **سُرَّ بحُسْنِ صوته**، فليعلمْ أنَّ كثيراً من الطَّيْرِ أحسنُ صوتاً منه، وأنَّ أصواتَ المزاميرِ ألذُّ وأطربُ مِنْ صوتِهِ.

فأيُّ فخرٍ، أو أيُّ سرورٍ فيما تكونُ فيه هذه البهائمُ متقدِّمةً له؟!.

لكنْ من قوِيَ تمييزه، واتَّسعَ عِلْمُه، وحَسُنَ عَمَلُه؛ فلْيَغْتبطْ بذلك، فإِنَّه لا يتقدَّمُه في هذه الوجوهِ إلَّا الملائكةُ، وخيارُ النَّاسِ.

نهي النفس عن الهوى

• قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١)﴾ [النازعات] جامعٌ لكلِّ فضيلةٍ [8/ب]، لأنَّ نهيَ النَّفْسِ عن الهوى هو رَدْعُها عنِ الطَّبعِ الغَضَبيِّ[1]، والطَّبعِ الشَّهوانيِ[2]، لأَنَّ كليهما واقعٌ تحتَ موجِبِ الهوى، فلم يبقَ إلَّا استعمالُ النَّفسِ للنُّطْقِ الموضوعِ فيها، الذي بانتْ به عن البهائمِ والحشراتِ والسِّباعِ.

---

(1) **الطبع الغضبي**: هو الطبع الذي يبعث على دفع الأذى والضرر عن صاحبه.

(2) **الطبع الشهواني**: هو الطبع الذي يبعث على تحصيل ما يجلب اللذة لصاحبه.

لا تغضب

• قولُ رسولِ اللهِ ﷺ للَّذي استوصاه: «**لا تَغْضَبْ!**»[1]. وأَمْرُه عليه السَّلام أنْ يُحِبَّ المرءُ لغَيرِه ما يُحِبُّ لنفسه[2]؛ جامعانِ لكلِّ فضيلةٍ.

لأنَّ في نهيه عن الغَضَبِ ردعُ النَّفسِ ذاتِ القوَّةِ الغضبِيَّة عن هواها.

وفي أمرِهِ عليه السلام بأن يُحِبَّ المرءُ لغيرهِ ما يحبُّ لنفسهِ ردعُ النفسِ عن القوَّةِ الشَّهْوانيةِ، وجمعٌ لأزِمَّةِ[3] العَدْلِ، الذي هو فائدةُ النّطق الموضوعِ في النَّفْسِ النَّاطقةِ.

تعجّل الشقاء

• رأيتُ أكثرَ النَّاسِ ـ إلَّا مَنْ عَصَمَ الله تعالى، وقليلٌ ما هم ـ يَتَعجَّلونَ الشَّقاءَ [9/أ] والهَمَّ والتَّعبَ

---

(1) رواه البخاري (6116).

(2) قال ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحدُكم حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِهِ**» رواه البخاري (13) ومسلم (45).

(3) **أزمة**: مقاليد.

لأنفسهم في الدُّنْيا، وَيَحْتَقِبُونَ[1] عظيمَ الإثم الموجبِ للنَّارِ في الآخرةِ بما لا يَحْظَوْنَ معه بنفعٍ أصلاً؛ من نِيَّاتٍ خبيثةٍ يَضِبُّون عليها[2]؛ مِنْ تمنِّي الغَلاءِ المهلكِ للنَّاسِ، وللصِّغارِ، ومَنْ لا ذنبَ له، وتمنِّي أشدّ البلاءِ لِمَنْ يكرهونه، وقد علموا يقيناً أنَّ تلكَ النِّيَّاتِ الفاسدةَ لا تُعَجِّلُ لهم شيئاً ممّا يتمنَّوْنَه، أو يوجِبُ كونَه، وأنّهم لو صفّوْا نِيَّاتِهِم وحَسَّنوها لتعجَّلُوا الرَّاحةَ لأنفسهم، وتفرَّغوا بذلكَ لمصالِحِ أمورِهم، ولاقتنوا بذلك عظيمَ الأجرِ في المَعادِ، من غيرِ أن يُؤَخِّرَ ذلك شيئاً مما يريدونه، أو يمنعَ كونه.

فأيُّ غُبْنٍ أعظمُ من هذه الحالِ الَّتي نبَّهْنا عليها، وأيُّ سَعْدٍ أعظمُ مِنَ الَّذي دَعَوْنا إِلَيْهِ؟!.

الدنيا (الآن)

● إذا حقَّقْتَ مدَّة الدنيا لم تجدْها إلَّا (الآنَ) الذي هو فَصْلُ الزمانين فقط، وأمَّا ما مضى، وما لم يأتِ [9/

---

(1) **يحتقبون**: يكتسبون.

(2) **يضبون عليها**: يحرصون عليها ويطلبونها.

ب]: فمعدومانِ كَمَا لم يكنْ، فمن أضلُّ مِمَّنْ يبيعُ باقياً خالداً بمدَّةٍ هي أقلُّ مِنْ كَرِّ الطَّرْفِ؟!.

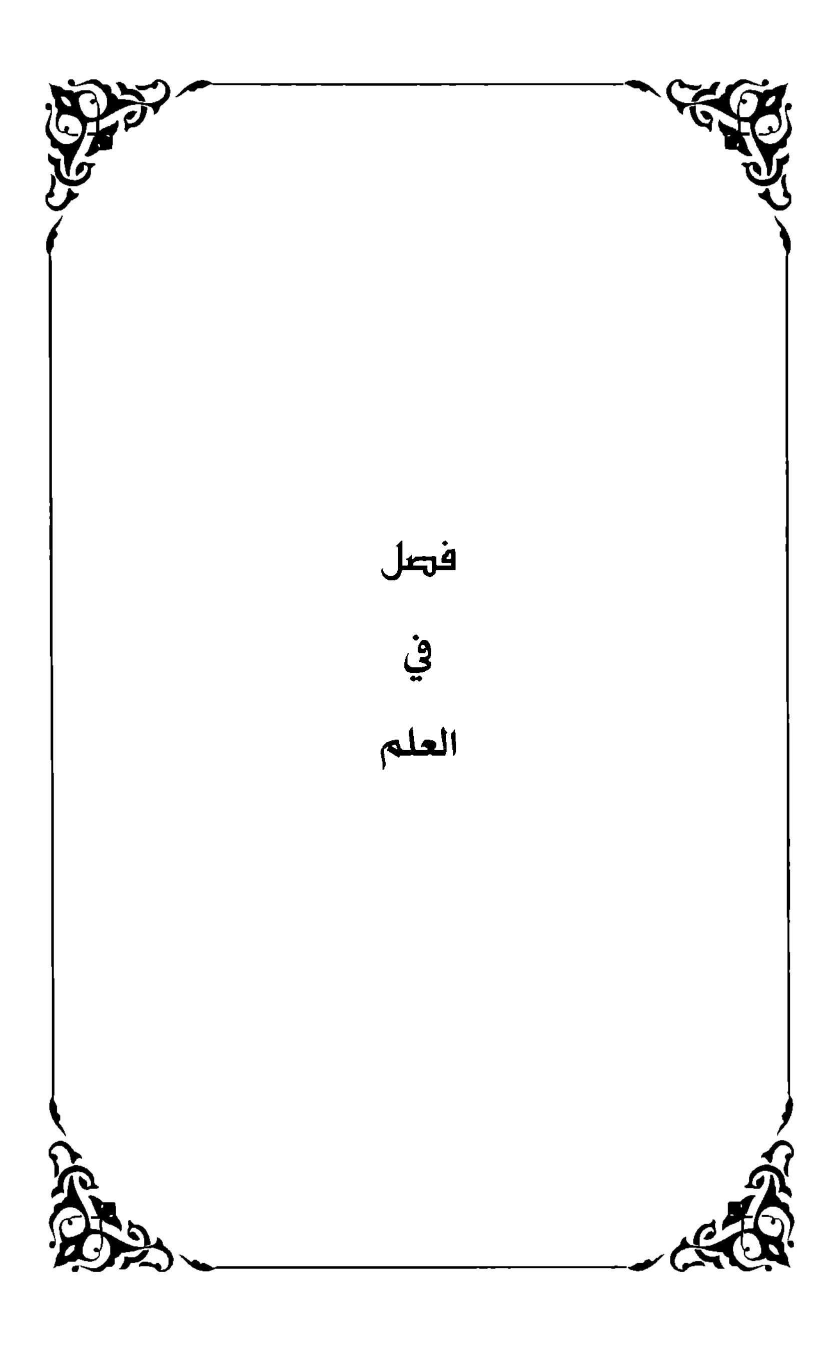
سعادة

● إذا نامَ المرءُ خرجَ عن الدُّنيا، ونسيَ كلَّ سرورٍ، وكلَّ حُزْنٍ، فلو رتَّبَ نفسَه في يقظتِهِ على ذلك أيضاً لسَعِدَ السَّعادةَ التَّامَّةَ.

الإساءة والصفح

● مَنْ أساءَ إلى أهلِهِ وجيرانِهِ فهو أسْقَطُهُم، ومَنْ كافَأَ مَنْ أساءَ إليه فهو مِثْلُهم، ومَنْ لم يكافئهم بإساءَتِهم فهو سَيِّدُهُم، وخيرُهُم، وأفضلُهم.





فصل
في
العلم

من فضل العلم للعالم

• لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فضلِ العِلْمِ إلَّا أنَّ الجُهَّالَ يهابونكَ ويُجِلُّونَكَ، وأنَّ العلماءَ يُحِبُّونكَ ويكرمونَكَ، لكانَ ذلك سبباً إلى وجوبِ طلَبِه، فكيفَ بسائرِ فضائلِهِ في الدُّنْيا والآخرة؟!.

موقف الجاهل

• ولو لم يكنْ مِنْ نَقْصِ الجهلِ إلَّا أنَّ صاحِبَهُ يَحْسِدُ العلماءَ، ويَغْبِطُ نظراءَهُ من الجُهَّال، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه [10/أ]، فكيف بسائرِ رذائلِه في الدُّنْيا والآخرة؟!.

العلم يقطع الإنسان عن البطالة

• لو لم يكنْ من فائدةِ العلمِ، والاشتغالِ بهِ؛ إلَّا أنَّه يقطعُ المُشْتَغِلَ[1] عن الوساوسِ المُضْنِيَةِ، ومطارحِ الآمالِ، الَّتي لا تفيدُ غيرَ الهمِّ، وكفايةِ[2] الأفكارِ

(1) في (ز): بالمشتغل، والمثبت من (ش).

(2) كذا في (ز)، ولعلها (سراية) والله أعلم.

المُؤْلِمَةِ للنَّفْسِ؛ لكانَ ذلكَ أعظمَ داعٍ إليهِ، فكيفَ وله من الفضائلِ ما يطولُ ذكرُه، ومِنْ أقلِّها ما ذكرنا، ممَّا يحصُلُ عليه طالِبُ العلم، وفي مثلِهِ أتعبَ ضُعفاءُ الملوكِ أنفسَهم، فتشاغلوا عمَّا ذكرنا بالشِّطْرَنْج، والنَّرْدِ، والخَمْرِ، والأغاني، وركضِ الدَّوابِّ في طلبِ الصَّيْدِ، وسائر الفُضُولِ التي [10/ب] تعودُ بالمضرَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأمَّا فائدةٌ فلا فائدةَ.

ماذا كفى العلم العالم؟!

● لو تدبَّرَ العالِمُ في مرورِ ساعاتِهِ ماذا كفاهُ العلمُ مِنَ الذُّلِّ بتسلُّط الجُهَّالِ، ومِنَ الهمِّ بمَغِيبِ الحقائقِ عنه، ومن الغِبْطَةِ بِمَا قد بانَ له وجهُهُ من الأمورِ الخَفِيَّةِ[1] [10/ب] عن غيره؛ لزاد حَمْداً للهِ ﷻ وغِبْطةً بِمَا لديهِ مِنَ العِلْمِ، ورغبةً في المَزِيدِ منه.

الاشتغال بأدنى العلوم وترك أعلاها

● مَنْ شَغَلَ نفسَهُ بأدنى العلومِ، وتركَ أعلاها ـ وهو

---

(1) في (ز) الحقيقة، والمثبت من (ش).

قادرٌ عليه ـ كان كزارعِ الذُّرَةِ في الأرضِ الَّتي يجودُ[1] فيها البُرُّ، وكغارسِ الشَّعْراءِ[2] حيثُ تزْكو النَّخْل والزَّيْتون.

صون العلم

● نَشْرُ العِلْمِ عِنْدَ مَنْ ليسَ من أهلِهِ مُفْسِدٌ لهم[3]،

---

(1) في (ز): (لا يجود)، والمثبت من (ش).
(2) شجرٌ لا يثمر.
(3) وبهذا المعنى قال الشافعي:
أأنثرُ دُرّاً بينَ سارحةِ النَّعَمْ
وأنظُمُ منثوراً لراعيةِ الغنمْ
لعمري لئن ضُيِّعْتُ في شَرِّ بلدةٍ
فلستُ مُضيْعاً فيهمُ غُرَرَ الكَلِمْ
سَأكْتُم علمي عن ذوي الجهلِ طاقتي
ولا أنثرُ الدُّرَّ النفيسَ على الغَنَمْ
لأنّهمُ أمْسَوْا بجهلٍ لقدرِهِ
فلا أنا أرضى أنْ أطوِّقَهُ البَهِمْ
لئن سهّلَ اللهُ العزيزُ بلُطفِهِ
وصادفتُ أهلاً للعلومِ وللحِكَمْ
بثثتُ مفيداً واستفدتُ ودادَهُم
وإلا فمكنونٌ لديَّ وَمُكْتَتَمْ

كإطعامِكَ العَسَلَ والحَلْوَاءَ مَنْ به احْتِراقٌ وحُمَّى، أو كتَشْمِيمِكَ المِسْكَ والعَنْبَرَ لِمَنْ به صُداعٌ من احتدامِ الصَّفْراءِ[1].

الباخل بالعلم لئيم

● الباخلُ بالعلمِ أَلْأَمُ مِنَ الباخلِ بالمالِ، لأنَّ الباخِلَ بالمالِ أشفقَ من فناءِ ما بِيَدِه، والباخِل بالعلمِ بَخِلَ بما لا يَفْنَى على النَّفقة، ولا يفارِقُهُ مع البذلِ.

إذا أحببت علماً فلا تشتغل بغيره

● من مَالَ بطبعِهِ إلى عِلْمٍ ما ـ وإنْ كانَ أدنى من غيره ـ فلا يَشْغَلْها بسواه، فيكونُ كغارسِ النَّارَجيلِ[2]

ومَنْ منحَ الجُهّالَ علماً أضاعَهُ
ومَنْ منعَ المُستوجبينَ فقد ظَلَمْ
وكاتِمُ علمِ الدِّينِ عمّنْ يريدُه
يبوءُ بأوزارٍ وإثمٍ إذا كَتَمْ

(1) **الصفراء**: من أخلاط البدن، واحتدامُها هو اشتدادُها وازديادُها، وهو دليل المرض. انظر: تذكرة داود (1/ 10).

(2) **النّارجيل**: شجر جوز الهند، وهي من فصيلة النخل.

بالأندلسِ [11/أ]، وكغارسِ الزيتونِ بالهندِ، وكلُّ ذلكَ لا يُنْجِبُ.

أجلّ العلوم

• أجلُّ العلومِ ما قَرَّبكَ مِنْ خالقِكَ تعالى، وما أعانَكَ على الوصولِ إلى رضاه.

انظر.. وانظر

• انْظُرْ في المالِ والحالِ والصّحَّةِ إلى مَنْ دُونك، وانظرْ في الدِّينِ والعلمِ والفضائلِ إلى مَنْ فَوْقَكَ.

العلم والجسم والعقل

• العلومُ الغامضةُ كالدَّواءِ القويِّ، يُصْلِحُ الأجسادَ القويَّة، ويُهلِكُ الأجسادَ الضَّعِيفَة.

وكذلك العلومُ الغامضةُ تَزيدُ العقلَ القويَّ جَودةً، وتُصَفِّيه مِنْ كلِّ آفةٍ، وتُهْلِكُ ذا العقلِ الضَّعِيفِ.

الغوص على العقل

• مِن الغَوصِ على الجنون ما لَوْ غاصَهُ صاحبُه على

العقلِ لكانَ أَحْكَمَ من الحسن البصريِّ[1]، وأفلاطون الأَثِينيِّ[2]، وبُزُرْجَمِهْرَ الفارسيِّ[3].

العقل بحاجة لعون الله تعالى

• وقفَ العقلُ عند أنَّه لا ينفعُ إنْ لم يُؤَيَّدْ بتوفيقٍ في الدِّينِ، أو بِسَعْدٍ في الدُّنيا[4].

العاقل من اتعظ بغيره

• لا تَضُرَّ بنفسِكَ في أَنْ تُجَرِّبَ بها الآراءَ الفاسدةَ، لتُرِيَ [11/ب] المشيرَ بها فسادَها فتَهْلِكَ، فإنَّ ملامةَ ذي الرأي الفاسدِ لكَ على مخالفتِهِ ـ وأنتَ ناجٍ من المكارِهِ

---

(1) هو الحسن بن أبي الحسن؛ يسار البصري، الفقيه، الزاهد، الواعظ، المشهور، من أجلّ التَّابعين، توفي سنة (110هـ).

(2) فيلسوف يوناني، ولد في أثينا عام (427 ق.م)، وتتلمذ على سقراط، وتوفي عام (347ق.م) وتتلمذ عليه أرسطو طاليس.

(3) حكيم من حكماء الفرس، وتفسير بزرجمهر: كثير العقل.

(4) قال الشاعر:

إذا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللهِ عونٌ للفتى
فأوّلُ ما يَقْضِي عليه اجتهادُهُ

ـ خيرٌ لك مِنْ أنْ يَعْذُرَكَ، ويَنْدَمَ كلاكُما، وأنت قد حَصَلْتَ في المكارِهِ.

إياك أن تسرَّ غيرك بما تسوء به نفسك

• إيَّاكَ أنْ تَسُرَّ غيرَك بما تسوءُ به نفسَكَ فيما لم تُوجِبْه عليكَ شريعةٌ أو فَضِيلةٌ.

صفات الباري ﷻ

• وقفَ العِلْمُ عند الجَهْلِ بصفاتِ الباري ﷻ.

ضرر الجاهل على العلوم

• لا آفةَ أَضرُّ على العلومِ وأهلِها من الدُّخلاءِ فيها؛ وهم مِنْ غيرِ أهلِها، فإنَّهم يجهلونَ، ويظنّونَ أنّهم يعلمونَ، ويُفْسدون، ويُقدِّرون أنَّهم يُصْلحون[1].

الاقتداء بالنبي ﷺ

• مَنْ أرادَ خيرَ الآخرةِ، وحِكْمةَ الدنيا، وعَدْلَ

(1) قال الحافظ ابن حجر: لو سكت مَنْ لا يعلمُ لأراحَ واستراحَ، وقلّ الخطأُ وكثر الصواب.

السِّيرةِ، والاحتواءَ على محاسنِ الأخلاق كلِّها، واستحقاقَ الفضائلِ بأَسْرِها؛ فَلْيَقْتَدِ بمُحمَّدٍ رسول الله ﷺ ولْيَسْتعملْ أخلاقَه وسِيَرَهُ ما أمْكَنَهُ، أعاننا الله على الاتِّسَاءِ به، بمَنِّه، آمين. [12/أ].

غاظني أهل الجهل وسرَّني أهل العلم

• غاظَني **أهلُ الجهلِ** مرَّتين مِنْ عُمُري:

إحداهما: بكلامهم فيما لا يُحْسِنُونَهُ أيَّامَ جهلي.

والثانية: بسكوتهم عَنِ الكلامِ بحَضْرتي أيَّامَ عِلْمي. فهم أبداً ساكتون عمَّا ينفعهم، ناطقونَ فيما يَضرُّهم.

وسرَّني **أهلُ العلم** مرَّتين من عُمري:

إحداهما: بتعليمي أيَّامَ جهلي.

والثانية: بمذاكرتي أيَّامَ عِلْمِي.

العلم والزهد فضل من الله تعالى

• مِنْ فضلِ العلمِ والزُّهدِ في الدُّنيا أنَّهما لا يُؤْتيهما اللهُ ﷻ إلَّا أهلَهما ومُسْتحقَّهما.

المال والجاه

● ومِنْ نقصِ عُلُوِّ أحوالِ الدُّنيا مِنَ المالِ والصَّوْتِ أنَّ أكثرَ ما يقعانِ في غيرِ أهلِهما، وفي مَنْ لا يَسْتَحِقُّهما.

من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها

● مَنْ طلبَ الفضائلَ لم يُسايرْ إلَّا أهلَها، ولم يُرافقْ في تلكَ الطَّريقِ إلَّا أكرمَ صديقٍ من أهل المواساةِ، والبِرِّ، والصِّدقِ، وحُسْنِ العِشْرةِ، والصَّبْرِ، والوفاءِ، والأمانةِ، والحِلْمِ، وصفاءِ الضمائرِ، وصِحَّةِ المودَّة.

من طلب المال والجاه

● ومَنْ طلبَ الجاهَ والمالَ واللَّذاتِ لم يُسايِرْ إلَّا أمثالَ الكلابِ الكَلِبَةِ[1]، والثَّعالب الخَلِبَةِ[2]، ولم يُرافِقْ في تلكَ الطَّرِيقِ إلّا كُلَّ عدوِّ المعتقدِ، خبيثِ الطَّبيعة.

---

(1) **الكلبة**: الضارية.

(2) **الخلبة**: الخادعة الماكرة.

منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة

• منفعةُ العِلْم [12/ب] في استعمالِ الفضائلِ عظيمةٌ، وهو أنَّه يُعَلِّمُ حُسْنَ الفضائلِ؛ فيأتيها ـ ولو في النُّدْرةِ ـ ويُعَلِّمُ قُبْحَ الرذائل؛ فيجتنبُها ـ ولو في الندرةِ ـ ويَسمَعُ الثَّناءَ الحَسَنَ فيرغبُ في مِثْله، والثناءَ الرَّديءَ فينفِرُ منه، فعلى هذه المقدِّماتِ يجبُ أن يكونُ للعلمِ حِصَّة في كلِّ فضيلةٍ، وللجهلِ حِصَّةٌ في كلِّ رذيلةٍ.

منزلة خُصَّ بها النبيون عليهم السلام

• ولا يأتي الفضائلَ مَنْ لم يتعلَّمِ العلمَ؛ إلَّا صافي الطبع جدّاً، فاضلُ التَّركيبِ، وهذه منزلةٌ خُصَّ بها النَّبيُّون عليهم السلام، لأنَّ الله تعالى علَّمهم الخيرَ كلَّه، دون أن يتعلَّمُوهُ مِنَ النَّاسِ.

الأخلاق مواهب من الله تعالى

• وقد رأيتُ من أَغْمَارِ العامَّةِ[1] مَنْ يجري مِنَ

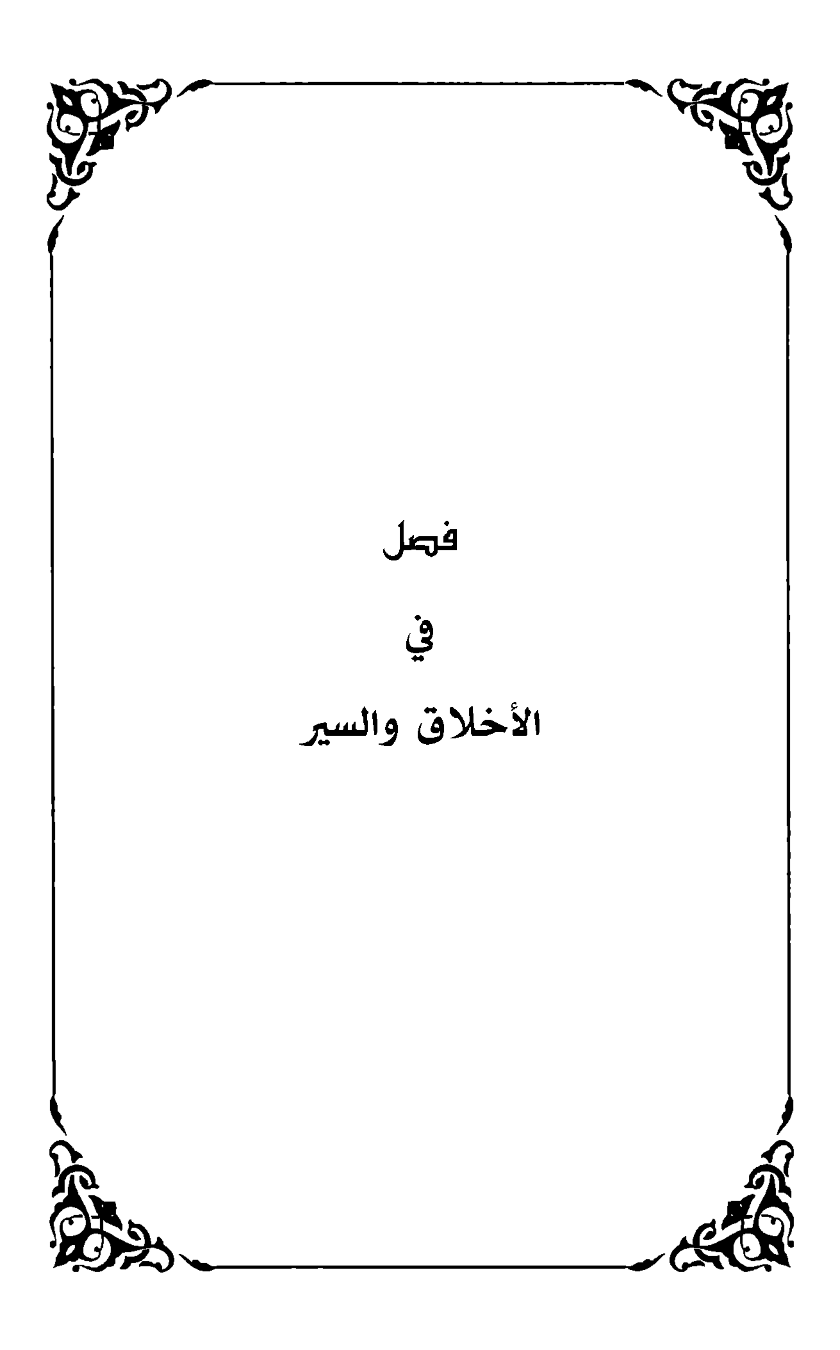
(1) **أغمار**: جمع غُمْر، ورجلٌ غُمْرٌ: لم يجرِّب الأمور. وفي (ز): غمار، وغمار الناس: زحمتهم.

الاعتدالِ، وحميدِ الأخلاقِ إلى ما لا يتقدَّمُهُ فيه حكيمٌ عالمٌ رائضٌ لنفسِه، **ولكنَّه قليلٌ جدّاً**.

● ورأيتُ مِمَّنْ طالعَ العلومَ، وعرفَ عهودَ الأنبياءِ ﷺ، ووصايا الحكماءِ؛ وهو لا يتقدَّمُه في خُبْثِ السِّيرةِ وفسادِ العلانيةِ [13/أ] والسَّريرةِ شِرارُ الخلْق، **وهذا كثيرٌ جِدّاً**، فعلمتُ أنَّها مواهبُ وحِرمانٌ من الله تعالى.







فصل

في

الأخلاق والسير

سلامة الجانب أمان

• احرصْ على أَنْ تُوصَفَ بسلامةِ الجانبِ، وتَحَفَّظْ مِنْ أنْ تُوصَفَ بالدَّهاءِ؛ فيكثرَ المُتَحفِّظُونَ منكَ، حتَّى ربَّما أضرَّ ذلك بكَ، وربَّما قتلكَ.

وطِّن نفسك على ما تكره

• وطِّنْ نفسَك على ما تكرَهُ؛ يَقِلَّ همُّكَ إذا أتاك، ولم تَسْتَضِرْ بتوطينِكَ أولاً، ويَعْظُمُ سرورُك ويتضاعَفُ إذا أتاكَ ما تُحِبُّ ممَّا لم تكن قَدَّرْتَهُ.

تكاثر الهموم

• إذا تكاثَرَتِ الهُمُومُ؛ سَقَطَتْ كلُّها.

السعيد في دنياه

• الغادِرُ يفي للمجدود[1]، والوفيُّ يغدِرُ بالمحدودِ، والسعيدُ ـ كلُّ السَّعيد ـ في دنياه؛ مَنْ لم يضطَرّه الزمانُ إلى اختبارِ الإخوانِ.

---

(1) **المجدود**: المحظوظ، **والمحدود** ضِدّه.

لا تفكر فيمن يؤذيك

• لا تفكِّرْ في مَنْ يُؤذيكَ فإنَّكَ إنْ كنتَ مقبِلاً فهو هالِكٌ، وسَعْدُك يكفيكَ، وإنْ كنتَ [13/ب] مُدْبِراً فكلُّ أحدٍ يُؤْذيك.

عيوب الناس

• طوبى لمنْ علمَ مِنْ عيوبِ نفسِهِ أكثرَ ممَّا يعلمُ النَّاسُ منها.

الصبر على الجفاء

• الصَّبْرُ على الجفاءِ[1] ينقسِمُ ثلاثةَ أقسامٍ:

فصبرٌ عَمّنْ يَقْدِرُ عليكَ، ولا تَقْدِرُ عليه.

وصبرٌ عَمّنْ تقدِرُ عليه، ولا يَقْدِرُ عليكَ.

وصبرٌ عَمّنْ لا تَقْدِرُ عليه، ولا يَقْدِرُ عليكَ.

فالأوَّلُ: **ذُلٌّ ومهانةٌ**، وليس من الفضائل، **والرأيُ**

---

(1) **الجفاء**: غلظ الطبع، **والجفاء أيضاً**: قطع الصلة وترك البر.

لمن خَشِيَ ما هُوَ أشدُّ مِمَّا يَصْبِرُ عليه **المُتَاركةُ والمُبَاعدةُ.**

والثاني: **فَضْلٌ وبِرٌّ**، وهو الحِلْمُ على الحقيقةِ، وهو الَّذي يُوْصَفُ به الفضلاءُ.

والثالثُ: ينقسم قِسْمَين:

أَمَّا إِنْ كان الجفاءُ مِمّن لم يقعْ منه إلَّا على سبيلِ الوَهْلةِ، ويعلمُ قُبْحَ ما أتى به، ويندَمُ عليه؛ **فالصَّبْرُ عنه فضلٌ وفَرْضٌ**، وهو حِلْمٌ على الحقيقة.

وأمَّا مَنْ كان لا يَدْري مقدارَ نفسِه، وَيظُنُّ لها حقّاً يستطيلُ[1] به، ولا يندَمُ على [14/أ] ما سلفَ منه؛ **فالصَّبْرُ عنه ذُلٌّ** للصَّابر، **وإفسادٌ** للمصبورِ عليه، لأنَّه يزيدُ استشراءً[2]، والمقارضةُ[3] له سُخْفٌ، **والصَّوابُ** إعلامُه بأنَّه كان مُمْكِناً أنْ ينتصرَ منه، وأنّه إنَّما تركَ ذلكَ استرذالاً لَهُ فقط، وصيانةً عَنْ مراجعتِهِ، ولا يُزادُ على ذلكَ.

---

(1) **يستطيل**: يعتدي.

(2) **استشرى**: عظم وتفاقم.

(3) **المقارضة**: مقابلته بمثل فعله.

وأمَّا **جفاءُ السِّفْلةِ**؛ فليسَ جزاؤُهُ إلَّا النَّكالُ وَحْدَهُ.

مجالسة الناس

• مَنْ جالسَ النَّاسَ لم يَعْدَمْ همّاً يُؤْلِمُ نفسَه، وإِثْماً يندَمُ عليه في مَعَادِهِ، وغَيْظاً يُنْضِجُ كَبدَه، وذُلّاً يُنْكِسُ هِمَّتَهُ، فما الظَّنُّ بَعْدُ بمَنْ خالطهم وداخلَهم؟!.

والعزُّ والرَّاحةُ والسُّرور والسَّلامةُ في الانفرادِ عنهم، ولكنِ اجْعلهم كالنَّارِ تَدَفَّأُ بها، ولا تُخَالِطُها.

• لو لم يَكُنْ في مجالسة النَّاس إلا عَيْبان لكَفَيا:

أحدهما: الاسْتِرسالُ عند الأُنْسِ بالأسرارِ المُهْلِكَةِ القاتلةِ، الَّتي لولا المجالسةُ لم يَبُحْ بها البائحُ.

والثاني: مواقَعَةُ [14/ب] الغِيبَةِ المُهْلِكَةِ في الآخرةِ.

فلا سبيلَ إلى السَّلامةِ مِنْ هاتَيْنِ البلِيَّتَيْنِ إلَّا بالانفرادِ عنِ المجالسةِ جُملَةً.

لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد

• لا تَحْقِر شيئاً من عملِ غدٍ أَنْ تحقِّقَه بأنْ تُعَجِّلَه اليومَ، وإنْ قلَّ، فإنَّ مِنْ قليلِ الأعمالِ يجتمعُ كثيرُها، وربَّما أعجزَ أمرُها عندَ ذلكَ، فبَطُلَ الكلُّ.

المسارعة إلى العمل الصالح وإن قَلَّ

● لا تَحْقِرْ ممَّا ترجو به تثقيلَ ميزانِكَ يومَ البَعْثِ أنْ تعجِّلَهُ الآن؛ وإنْ قلَّ، فإنَّه يَحطُّ عنكَ كثيراً، لو اجتمعَ[1] لَقَذَفَ بكَ في النَّار.

أمور لا يعلمها إلّا من كان فيها

● الوَجَعُ، والفَقْر، والنَّكْبة، والخَوْفُ؛ لا يُحِسُّ أذاها إلَّا **مَنْ كانَ فيها**، ولا يعلمُه مَنْ كان خارِجاً عنها.

● وجودةُ الرأي، والفضائلُ، وعملُ [15/أ] الآخرة؛ لا يعرفُ فضلَها إلَّا **مَنْ كانَ مِنْ أهلِها**، ولا يَعْرِفُه مَنْ لم يكنْ مِنْ أهلِها[2].

أمور لا يعلمها إلّا من كان خارجاً عنها

● وفسادُ الرأي، والإثمُ، والعارُ؛ لا يعلمُ قُبْحَها

---

(1) أي: لو اجتمع ما يُحَطُّ عنك لخفّة ميزانك لقذفَ بك في النار.

(2) أتت هذه الجملة بعد جملة (الأمن والصحة ص58) وقُدِّمتْ إلى الفقرة أعلاه لمجانستها لِمَا قبلها.

إلَّا مَنْ كان **خارجاً عنها**، وليس يراهُ مَنْ كان داخلاً فيها.

• الأمنُ، والصِّحَّةُ، والغِنى؛ لا يعرِفُ حقَّها **إلَّا مَنْ كان خارجاً عنها**، وليس يَعْرِفُهُ مَنْ كان فيها.

الغدر وشهادة الزور والزنى

• أوَّلُ مَنْ يزهدُ في الغادرِ مَنْ غَدَرَ له الغادِرُ، وأوَّلُ مَنْ يَمْقُتُ شاهِدَ الزُّورِ مَنْ شَهِدَ له بِهِ، وأوَّلُ من تهونُ الزَّانِيةُ في عينِهِ الذي يزني بها.

عقل ينبغي أن يُتَّهمَ

• ما رأينا شيئاً فَسَدَ فعادَ إلى صِحَّته إلَّا بعدَ لَأْيٍ[1]، فكيفَ بدماغ يتوالى عليه فَسَادُ السُّكْرِ كلَّ ليلةٍ؟! وإنَّ عقلاً زيَّنَ لأصحابِهِ تَعْجيلَ إفسادِهِ كلَّ ليلةٍ، لَعَقْلٌ ينبغي أنْ يُتَّهَمَ.

---

(1) **اللَّأْيُ**: الزمن الطويل.

حفظ الكرامة

• الطَّرِيقُ تُبْرِمُ[1]، والزَّوايا تُكْرِمُ[2]، وكثرةُ المالِ تُرَغِّبُ[3]، وقلَّتُهُ تُقْنِعُ.

العاقل والأحمق

• قد يَنْحَسُ[4] العاقِلُ بتَدْبيرِه، ولا يَجُوزُ أَنْ يَسْعَدَ الأَحْمَقُ بتدبيرِه.

لا شيء أضرُّ على الحاكم

• لا شَيءَ أضرُّ على السُّلطانِ مِنْ كثرةِ المتفرِّغينَ[5]

---

(1) أي الطريق تضجر من كثرة مخالطة الناس، وربما فقد الفاضل هيبته والكريم كرامته، فالعامة لا تعرف أقدار الناس.

(2) الابتعاد عن مخالطة العامة، والجلوس في الزوايا، يحفظ للإنسان وقاره وكرامته، انظر قوله (ص65): «كثرة وقوع العين على الشخص يسهّلُ أمره ويهوّنه».

(3) **ترغب**: تتطلّب المزيد منه.

(4) **النحس** ضد **السعد.**

(5) **المتفرغين**: البطالين الذين لا شغل لهم إلا اللهو والعبث.

حوالَيْهِ، فالحازِمُ يُشْغِلُهم بما لا يَظْلِمُهُم فيه، فإنْ لم يفعلْ شَغَلُوه بما يَظْلمُونَهُ فيه.

احذر عدوك

• وأمَّا مقرِّبُ أعدائه؛ فذلكَ قاتِلُ نفسِهِ.

آفة المخالطة

• كثرةُ وقوع العَيْنِ [15/ب] على الشَّخصِ يُسَهِّلُ أمْرَهُ ويُهَوِّنُهُ.

ستائر الجهل

• التَّهْوِيل بلزوم زيٍّ[1] ما، والاكْفِهْرارُ[2]، وقِلَّةُ الانبساطِ، ستائِرُ؛ جعلها الجهَّالُ ـ الذين مَكَّنتهم الدُّنيا ـ أمامَ جَهْلِهِم.

(1) في (ز): تزيّ، والمثبت من (ش).

(2) **الاكفهرار**: العبوس.

الصداقة في الرخاء

• لا يَغْتَرُّ العاقِلُ بصداقةٍ حادثةٍ له أيَّامَ دولتِهِ، فكلُّ أحدٍ صَدِيقُهُ يومئِذٍ.

العون والمساعدة

• اجهدْ في أنْ تستعينَ في أمورِكَ بمن يُريدُ منها لنفسِهِ مِثْلَ ما تُريدُ لنفسِكَ، ولا تستعنْ فيها بِمَنْ حَظُّه مِنْ غيرِكَ كحَظِّه منك.

التثبت مما يقال

• لا تُجِبْ عن كلامٍ نُقلَ إليك عن قائلٍ حتَّى تُوقِنَ أنَّه قاله، فإنَّ مَنْ نقلَ إليكَ كَذِباً رجعَ مِنْ عندكَ بحقٍّ.

الثقة بالمتدين

• ثِقْ بالمُتَدَيِّنِ، وإنْ كانَ على غير دِينِكَ، ولا تَثِقْ بالمُسْتَخِفِّ، وإنْ أظهرَ أنَّه على دينِك.

• مَنِ استخفَّ بحُرُماتِ الله تعالى فلا تأْمَنْه على شيءٍ ممَّا تُشْفِقُ عليه.

المشاركة بالأرواح
أكثر من المشاركة بالمال

• وجدتُ المشاركينَ بأرواحهم أكثرَ من المشاركين بأموالهم، هذا شيءٌ طالَ اختباري إيَّاه، ولم أَجِدْ قطُّ على طُولِ التَّجْربة سُواه، فأَعْيَتْني معرفةُ العِلَّةِ في ذلكَ حتَّى قَدَّرتُ أنَّها طبيعةٌ في البشر.

من قبيح الظلم

• مِنْ قبيحِ الظُّلمِ الإنكارُ على مَنْ أكثرَ الإساءةَ إذا أحْسَنَ في النُّـدْرَةِ.

من استراح من عدو

• مَن استراحَ مِنْ عدوٍّ واحدٍ؛ حَدَثَ له أعداءٌ كثيرةٌ.

الدنيا كخيال الظل

• أشْبَهُ ما رأيتُ بالدُّنيا خَيَالُ الظِّلِّ، وهو تماثيلُ

مركَّبةٌ على مَطْحَنَةِ خُشُبٍ، تُدارُ بسرعةٍ، فتغيبُ طائِفَةٌ، وتَبْدُو أخرى.

التزاور في المنام

• طالَ تعجُّبي في الموتِ، وذلكَ أنِّي صَحِبْتُ أقواماً صُحْبَةَ الرُّوحِ للجسدِ، مِنْ صِدْقِ المودَّة، فلمَّا ماتُوا رأيتُ بعضَهم في النَّوْم، ولم أرَ بعضَهم، وقد كنتُ عاهدتُ بعضَهم في الحياةِ على التَّزاورِ في المنامِ بعدَ الموتِ ـ إنْ أمكنَ ذلك ـ فلم أره في النَّوم بعدَ أنْ تقدَّمنِي إلى دارِ الآخرةِ، فلا أدري أنسيَ أم شُغِلَ؟!.

غفلة النفس

• غَفْلةُ النَّفْس [16/ب] ونسيانُها ما كانتْ فيه في دارِ الابتلاءِ قبلَ حُلُولِها في الجَسَدِ؛ كغَفْلةِ مَنْ وقعَ في طينٍ غَمْرٍ[1] عَنْ كلِّ ما عَهِدَ وعرفَ قبل ذلك.

لذة النوم محسوسة في حاله

• ثُمَّ أطلتُ الفِكْرَ أيضاً في ذلك، فلاحَ لي شِعْبٌ

---

(1) **طينٍ غمرٍ**: كثيرٍ.

زائدٌ مِنَ البيانِ، وهو أنِّي رأيتُ النَّائمَ إذ همَّتْ نفسُهُ بالتَّخلِّي من جسدِهِ، وقويَ حِسُّها حتَّى تشاهِدَ الغيوبَ؛ قد نَسِيَتْ ما كانتْ فيه قُبَيْلَ نومِها نسياناً تامّاً البَتَّةَ على قُرْبِ عهدِها به، وحَدَثَتْ لها أحوالٌ أُخَرُ، وهي في كلِّ ذلك ذاكرةٌ حسَّاسةٌ، مُتَلَذِّذَةٌ، آلِمَةٌ، ولذَّةُ النَّوْمِ مَحسُوسَةٌ في حاله، لأنَّ النَّائِمَ يلتَذُّ، ويَحْتَلِمُ، ويخافُ، ويَحْزَنُ؛ في حالِ نَوْمِهِ.

إنما تأنس النفس بالنفس

● إنَّما تأنَسُ النَّفْسُ بالنَّفْسِ، وأمَّا الجسدُ فمبرومٌ[1] به، مُسْتَثْقَلٌ، ودليلُ ذلكَ استعجالُ المَرْءِ بدَفْنِ جَسَدِ حَبيبِهِ إذا فارَقَتْهُ نفسُه، وأسَفُهُ لذهابِ النَّفسِ؛ وإنْ كانَ الجَسَدُ حاضراً بينَ يدَيْه [17/أ].

من حبائل إبليس

● لم أَرَ لإبليسَ أَصْيَدَ، ولا أقْبَحَ، ولا أحمقَ؛ مِنْ كلمتَيْنِ ألقاهما على ألْسِنَةِ دُعاتِهِ:

(1) مبروم به: مُتَضَجِّرٌ به.

إحداهما: اعتذارُ مَنْ أساءَ بأنَّ فلاناً أساءَ قبله.

والثَّانية: استسهالُ الإنسان أنْ يُسِيْءَ اليومَ، لأنَّه قد أساءَ أمسِ، أَوْ أنْ يُسِيْءَ في وجهٍ ما، لأنَّه قد أساءَ في غَيْرِهِ.

فَقَدْ صارتْ هاتانِ الكلمتانِ عُذْراً؛ مسهِّلَتَيْنِ للشَّرِّ، ومُدْخِلَتَيْنِ له في حَدِّ ما يُعْرَفُ ويَجْمُلُ، ولا يُنْكَرُ.

حسن الظن

• استعملْ سوءَ الظَّنِّ حيثُ تقدِرُ على توفِيَتِهِ حقَّهُ في التَّحَفُّظِ والتأهُّبِ.

واستعملْ حُسْنَ الظَّنِّ حيثُ لا طاقةَ بكَ على التَّحَفُّظِ، فتربَحَ راحةَ النَّفْسِ.

حدّ الجود وغايته

• حَدُّ الجُودِ وغايتُه؛ أنْ تبذُلَ الفَضْلَ كلَّه في وجوهِ البِرِّ، وأفضلُ ذلك في الجارِ المُحْتاجِ، وذي الرَّحِمِ الفقير، وذي النِّعْمَةِ الذاهبةِ[1]، والأحضَرِ فاقةً[2].

---

(1) ومنه قول القائل: ارحموا عزيزَ قومٍ ذَلّ.

(2) **الأحضر فاقة**: الأمسّ حاجة.

ومنعُ الفَضْل من هذه الوجوه داخلٌ في البخل، وعلى قَدْرِ [17/ب] التَّقْصيرِ والتَّوسُّعِ في ذلك؛ يكونُ المَدْحُ والذَّمُّ.

وما وُضِعَ في غيرِ هذه الوجوهِ؛ فهو تبذِيرٌ، وهو مَذْمومٌ.

وما بَذَلْتَ من قُوتكَ لِمَنْ هو أمسُّ حاجةً منكَ فهو فَضْلٌ وإيثارٌ، وهو خيرٌ من الجُودِ، وما مُنِعَ مِنْ هذا فَهْوَ لا حَمْدٌ ولا ذمٌّ، وهو انْتِصافٌ.

• بذلُ الواجباتِ فَرْضٌ، وَبَذْلُكَ ما فَضَلَ عن القوتِ جودٌ، والإيثارُ على النَّفسِ من القوتِ بما لا تَهْلِكُ على عَدَمِهِ فضلٌ.

• ومنعُ الواجباتِ حرامٌ، والمنعُ مِنَ الإيثارِ ببعضِ القُوتِ عُذْرٌ، ومنعُ النفسِ والأهلِ القوتَ، أو بعضَه؛ نَتَنٌ ورذالَةٌ ومعصيةٌ.

• والسَّخاءُ بما ظَلَمْتَ فيه، أو أخذْتَهُ بغيرِ حقِّهِ ظُلْمٌ مكرَّرٌ، والذَّمُّ جزاءُ ذلك لا الحَمْدُ، لأنَّك إنَّما تبذُلُ مالَ غيرِكَ على الحقيقةِ لا مالَكَ، وإعطاءُ النَّاسِ حقُوقَهُمْ [18/أ] ممَّا عندَكَ ليسَ جُوْداً، ولكنَّه حقٌّ.

حدّ الشجاعة

• حَدُّ الشَّجاعةِ بذلُ النَّفسِ للموتِ عَنِ الدِّينِ والحَريمِ، وعنِ الجارِ المُضْطَهدِ، وعنِ المُسْتَجِيرِ المظلومِ، وعنِ الهَضِيمَةِ[1] ظُلْماً في المالِ والعِرْضِ، وفي سائرِ سُبُلِ الحقِّ، سواءٌ قلَّ مَنْ يعارِضُ أو كَثُرَ.

• والتَّقْصيرُ عمّا ذكرنا جُبْنٌ وخَوَرٌ، وبذلُها[2] في عَرَضِ دُنْيا تَهَوُّرٌ وحُمْقٌ.

• وأَحْمَقُ مِنْ ذلكَ مَنْ بذلَها في المَنْعِ عَنِ الحقوقِ الواجباتِ قِبَلَكَ أو قِبَلَ غيرِكَ.

• وأَحْمَقُ مِنْ هؤلاء كلِّهم قومٌ شاهدناهم، لا يَدْرُونَ فيما يَبْذُلُونَ أنفسَهم، فتارةً يقاتِلُوْنَ زيداً عَنْ عَمْرٍو، وتارةً يقاتلون عَمْراً عَنْ زَيْدٍ، ولعلّ ذلكَ يكونُ في يومٍ واحدٍ، فيتعرَّضُونَ للمهالِكِ بلا معنًى، فيُقْبِلونَ إلى النَّارِ، أو يفِرُّونَ إلى العارِ. وقد أنْذَر بهؤلاء رسولُ الله

---

(1) **الهضيمة**: النقصان والجور.

(2) في (ز): بذلهما، وما أثبته من (ش).

ﷺ في قولِهِ: «**يَأتِي على النَّاسِ زَمَانٌ لا يَدْري القَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، ولا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**»[1] [18/ب]

حدّ العفة

• حَدُّ العِفَّةِ أنْ تغُضَّ بصرَكَ، وجميعَ جوارحِكَ عَنِ الأجسامِ الَّتي لا تَحِلُّ لك، فما عدا هذا فهو عُهْرٌ، وما نَقَصَ حَتَّى يمسِكَ عمَّا أحلَّ اللهُ تعالى فهو ضَعْفٌ وعَجزٌ.

حدّ العدل والجور

• حَدُّ العدلِ أنْ تعطيَ مِنْ نفسِكَ الواجبَ وتأخُذَهُ.

• وحَدُّ الجَوْرِ أنْ تأخذَهُ ولا تُعْطِيَهُ.

حدّ الكرم

• وحَدُّ الكَرَمِ أن تعطيَ مِنْ نفسِكَ الحقَّ طائعاً، وتتجافى عَنْ حقِّكَ لغيرِكَ قادراً، وهو فَضْلٌ أيضاً.

---

(1) رواه مسلم (2908).

وكُلُّ جُوْدٍ كَرَمٌ وفَضْلٌ، وليسَ كُلُّ كرم وفَضْلٍ جوداً، فالفضلُ أعمُّ، والجودُ أخصُّ، إذ الحِلْمُ فضلٌ، وليس جوداً، والفضلُ فَرْضٌ زِدْتَ عليه نافِلَةً.

عواقب الإهمال

- إهمالُ ساعةٍ يُفْسِدُ رياضةَ سَنَةٍ.

خطأ الواحد خير من خطأ الجماعة

- خَطأُ الواحدِ خيرٌ في تدبيرِ الأمورِ مِنْ صوابِ[1] الجماعةِ الَّتي لا يَجْمَعُها واحِدٌ، لأنَّ خطأَ الواحدِ في ذلك يُستدرَكُ، وصوابُ الجماعةِ يُضْرِي على استدامةِ الإهمالِ، وفي ذلكَ الهلاكُ [19/أ].

---

(1) كذا في الأصل، ولم يتبيّن له وجهه، وأرى أن الوجه هو: «خطأ الواحد خير في تدبير الأمور من خطأ الجماعة التي لا يجمعها واحد، لأن خطأ الواحد في ذلك يستدرك، وخطأ الجماعة يضري على استدامة الإهمال، وفي ذلك الهلاك» والله أعلم.

الفتنة لا تأتي بخير

• نُوَّارُ[1] الفِتْنَةِ لا يَعْقِدُ[2].

الإقرار بالعيوب ليتعظ بذلك متعظ

• كانتْ فيَّ عيوبٌ، فلم أزلْ ـ بالرِّياضةِ، واطِّلاعي على ما قالتِ الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضلُ من الحُكَماءِ المتأخرينَ والمُتَقدِّمينَ في الأخلاق، وفي آدابِ النَّفسِ ـ أُعاني مداواتَها حتَّى أعانَ اللهُ ﷻ على أكثرِ ذلكَ، بتوفيقه ومَنِّهِ.

وتمامُ العدلِ، ورياضةِ النَّفْس، والتَّصَرُّفِ بأزِمَّة[3] الحقائقِ؛ هُوَ الإقرارُ بها، ليتَّعِظَ بذلك مُتَّعِظٌ يوماً إنْ شاءَ اللهُ:

• فمِنْها: **كَلَفٌ في الرِّضا، وإفراطٌ في الغَضَب،** فلم أزلْ أداوي ذلك حتَّى وقفتُ عند تركِ إظهارِ الغَضَبِ

---

(1) الفعل التَّنوير، وتنوير الشجر: ازهرارها.

(2) **لا يعقد**: ولا يتكامل ولا ينضج.

(3) **الأزِمّة**: جمع زمام: وهو المِقْوَد، **وأزمّةُ الحقائق**: مفاتيحها ومبادئها.

جملةً؛ بالكلامِ والفعلِ والتَّخَبُّطِ، وامتنعتُ ممَّا لا يَحِلُّ من الانتصارِ، وتحمَّلتُ مِنْ ذلكَ ثقلاً شديداً، وصبرتُ على مَضَضٍ مُؤْلمٍ كان ربَّما أمرضني.

وأعجزني ذلك في الرِّضا، وكأنِّي سامحتُ نفسي في ذلكَ، لأنَّها تمثَّلتْ أنَّ تركَ ذلكَ لُؤمٌ.

● ومنها: **دعابةٌ** [19/ب] غالِبَةٌ، فالذي قَدِرْتُ عليه فيها إمساكي عمَّا يُغْضِبُ المُمَازَحَ، وسامحتُ نفسي فيها، إذْ رأيتُ تركَها من الانْغِلاقِ[1]، ومُضَاهِياً الكِبْرَ.

● ومنها: **عُجْبٌ شديدٌ**، فناظَرَ عقلي نفسي بما يَعْرِفُهُ مِنْ عيوبها، حتَّى ذهبَ كلُّه، ولم يَبْقَ له ـ والحمدُ لله ـ أثَرٌ، بل كلَّفْتُ نفسي احتقارَ قَدْرِها جملةً، واستعمالَ التَّواضُعِ.

● ومنها: **حركاتٌ كانتْ تولِّدُها غَرارَةُ الصِّبا[2] وضَعْفُ الأعضاءِ، فقَصَرْتُ نَفْسِي على تَرْكِها فَذَهَبَتْ.**

● ومنها: **محبَّةٌ في بُعْدِ الصِّيتِ والغَلَبَةِ**، فالَّذِي وَقَفْتُ عليه مِنْ معاناة هذا الدَّاءِ الإمساكُ فيه عمَّا لا يَحِلُّ

(1) **الانغلاق**: الانطواء على النفس.

(2) **غرارة الصبا**: غفلة الصِّبا.

في الدِّيانة، واللهُ المستعانُ على الباقي، مع أنَّ ظهورَ النَّفْسِ الغضَبِيَّةِ إذا كانتْ مُنْقادةً للنَّاطِقَةِ فَضْلٌ، وخُلُقٌ مَحْمُودٌ.

● ومنها: **إفراطٌ في الأَنَفَةِ**، بغَّضَتْ إلَيَّ إنكاحَ الحُرَمِ جُمْلَةً بكلِّ وجهٍ، وصَعَّبَتْ ذلكَ في طَبِيعَتي، وكأنِّي [20/أ] توقَّفْتُ عَنْ مغالبةِ هذا الإفراطِ، الذي أعرفُ قُبْحَهُ لعوارضَ اعترضتْ عليَّ، واللهُ المُسْتعانُ.

● ومنها: عَيْبانِ قد سَتَرَهُمَا اللهُ تعالى، وأعانَ على مقاوَمَتِهما، وأعانَ بلُطْفِهِ عليهما، فذهبَ أحدُهُما البَتَّةَ ـ وللهِ الحمدُ ـ وكأنَّ السَّعادةَ كانتْ مُوكَلَةً بي، فإذا لاحَ منه طالِعٌ قصدتُ طَمْسَهُ، وطاولني[1] الثَّاني منهما، فكانَ إذا ثارتْ منه مُدُودُه، نَبَضَتْ عُرُوقُهُ، فيكادُ يَظْهَرُ، ثُمَّ يَسَّرَ اللهُ تعالى قَدْعَهُ[2] بضروبٍ مِنْ لُطْفِهِ تعالى حتَّى أَخْلَدَ[3].

● ومنها: **حِقْدٌ مفرِطٌ**، قَدِرْتُ بعونِ الله تعالى على

---

(1) **طاولني**: غالبني.

(2) **قدعه**: قطعه وكبحه.

(3) **أخلد**: سكن.

طَيِّه وسَتْرِه، وغَلَبْتُهُ على إظهارِ جميعِ نتائجِهِ، وأمَّا قَطْعُهُ البَتَّةَ فلم أقدِرْ عليه، وأعجزني معه أنْ أصادِقَ مَنْ عاداني عداوةً صَحِيحَةً أبداً.

سوء الظن في حدود الديانة حزمٌ

● وأمَّا سوءُ الظَّنِّ فيعدُّه قومٌ عيباً على الإطلاق، وليسَ كذلك، إلَّا إذا أدَّى صاحِبَهُ[1] إلى ما لا يَحِلُّ في الدِّيانَةِ، [20/ب] أو إلى ما يَقْبُحُ في المعاملةِ، وإلَّا فهو حَزْمٌ، والحَزْمُ فَضِيْلَةٌ.

ابن حزم يفنّد عيوباً نسبها إليه أعداؤه

● وأمَّا الذي يَعِيبُني به جُهَّالُ أعدائي مِنْ أنِّي لا أبالي فيما أعتقدُهُ حقّاً؛ عن مُخالفةِ من خالَفْتُهُ، ولو أنَّهم جميعُ مَنْ على ظَهْرِ الأرضِ، وأنِّي لا أُبالي موافَقَةَ أهلِ بلادي في كثيرٍ من زِيِّهم الذي قد تعوَّدُوه لغير مَعْنًى، **فهذه الخَصْلَةُ عندي مِنْ أكبرِ فضائلي الَّتي لا مثيلَ**

---

(1) كذا في (ز) و(ش)، ولعلها (أَوْدى بصاحبه).

لها، ولعَمْري لو لم تَكُنْ فيَّ ـ وأعوذُ باللهِ ـ لكانتْ مِنْ أعظمِ مُتَمَنَّيَاتي وطلباتي عند خالقي ﷻ.

وأنا أوصي بذلك كُلَّ مَنْ بلغه كلامي، فلنْ ينفَعَهُ اتِّباعُهُ النَّاسَ في الباطلِ والفضولِ؛ إذا أسْخَطَ ربَّه تعالى، وغَبَنَ عقلَهُ، أو آلم نَفْسَهُ وجسدَه، وتكلَّفَ مؤونةً لا فائدةَ فيها.

● وقد عابَنِي ـ أيضاً ـ بعضُ مَنْ غابَ عَنْ معرفةِ الحقائقِ أنِّي لا آلَمُ لنَيْلِ مَنْ نالَ منِّي، وأنِّي أتعدَّى ذلكَ مِنْ نفسِي [21/أ] إلى إخواني، فلا أمْتَعِضُ لهم إذا نِيلَ منهم بحضرتي.

وأنا أقولُ: إنَّ مَنْ وصفَني بذلكَ فقد أجملَ الكلامَ، ولم يُفَسِّرْه، والكلامُ إذا أُجْمِلَ اندرجَ فيه تَحْسِينُ القَبِيحِ، وتَقْبِيحُ الحَسَنِ. أَلَا ترى لو أنَّ قائلاً قالَ: إنَّ فلانـاً يَطَأُ أختَه! لَفَحُشَ ذلك، ولاسْتَقْبَحَهُ كلُّ سامعٍ له، حتَّى إذا فَسَّرَ فقالَ: هي أختُه في الإسلام، ظهرَ فُحْشُ هذا الإجمالِ وقُبْحُهُ.

● وأمَّا أنا فإنِّي إنْ قلتُ: لا آلمُ لنَيْلِ مَنْ نالَ منِّي؛ لَمْ أصدُقْ، فالألمُ في ذلك مطبوعٌ مجبولٌ في البشر

كلِّهم، لكنَّي قَدْ قَصَرْتُ نفسِي على أنْ لا أُظْهِرَ لذلك غضباً ولا تخبُّطاً ولا تهيُّجاً، فإنْ تيسَّرَ لي الإمساكُ عن المقارضةِ جملةً، بأنْ أتأَهَّبَ لذلك، فهو الَّذي أعتمدُ عليه، بحولِ اللهِ تعالى وقوَّتِهِ.

وإنْ بادَرني الأمرُ؛ لم أُقارِضْ إلَّا بكلام مُؤْلم، غيرِ فاحشٍ، أتحرَّى فيه الصِّدْقَ، ولا [21/ب] أُخرِجُهُ مَخْرَجَ الغضبِ، ولا الجهلِ.

● وبالجملةِ: فإنِّي كارهٌ لهذا إلَّا لضرورةٍ داعِيَةٍ إليه ممَّا أرجو به قَمْعَ المُسْتَشْري في النَّيْلِ منِّي، أو قَدْعَ النَّاقلِ إِليَّ، إذ أكثرُ النَّاسِ مُحِبُّونَ لإسماعِ المكروهِ مَنْ يُسْمِعُونَهُ إيَّاه على ألسنةِ غيرِهم، ولا شَيءَ أقدعُ لهم مِنْ هذا الوجهِ، فإنَّهم يكفُّون به عَنْ نَقْلِهم المكارِهَ على ألسنةِ النَّاسِ إلى النَّاسِ، وهذا شيءٌ لا يُفيدُ إلَّا إفسادَ الضمائرِ، وإدخالَ النَّمائِم فقط.

● ثم بعدَ هذا؛ فإنَّ النائلَ مِنِّي لا يخلو مِنْ أحدِ وجهَيْن لا ثالثَ لهما: إمَّا أنْ يكونَ كاذباً، وإمَّا أن يكونَ صَادقاً.

فإن كان كاذباً، فلقد عَجَّلَ اللهُ لي الانتصارَ منه على

لسانِ نَفْسِهِ، بأنْ حَصَلَ على جملةِ أهلِ الكذبِ بأنْ نَبَّه على فَضْلي؛ بأنْ نَسَبَ إليَّ ما أنا مِنْهُ بَرِيءُ العِرْضِ، وما يَعْلَمُ أكثرُ السَّامعينَ له كَذِبَهُ، إمَّا في وقتِهِ ذلك [22/أ]، وإمَّا بعدَ بحثهم عَمَّا قالَ.

وإن كان صادقاً، فإنَّه لا يخلو من أحدِ ثلاثةِ أوجهٍ:

إِمَّا أنْ أكونَ شاركتُه في أمرٍ، استرحتُ إليه استراحةَ المرءِ إلى مَنْ يُقدِّرُ فيه ثقةً وأمانةً، فهذا أسوأُ النَّاسِ حالةً، وكفى به سقوطاً وضَعَةً.

وإمَّا أن يكونَ عابَني بما يَظُنُّ أنَّه عَيْبٌ، وليس عيباً، فقد كفاني جهلُهُ شأْنَهُ، وهو المعيبُ لا مَنْ عابَ.

وإِمَّا أنْ يكونَ عابني بعيبٍ هو فيَّ على الحقيقةِ، وعَلِمَ منِّي نقصاً أطلقَ به لسانَهُ، فإنْ كانَ صادِقاً فنفسِي أحقُّ بأنْ ألُومَ منه، وأنا ـ حِينَئِذٍ ـ أجدرُ بالغضبِ على نفسي مِنِّي على مَنْ عابني بالحقِّ.

● وأمَّا أمرُ إخواني؛ فإنِّي لستُ أُمْسِكُ عن الامتعاضِ لهم، لكنِّي أمتعضُ امتعاضاً رفيقاً لا أزيدُ فيه على أنْ أُنَدِّمَ القائلَ منهم بحضرتي، وأجعلَه يتذمَّمُ[1]،

(1) **يتذمم**: يستنكف ويبتعد عما يُذَمُّ عليه.

ويعتذرُ، ويَخْجلُ [22/ب] ويتنصَّلُ، وذلكَ بأنْ أسلكَ به طريقَ ذمِّ مَنْ نالَ مِنَ النَّاسِ، وأَنَّ نَظَرَ المرءِ في أمرِ نفسهِ، والتهمُّمَ[1] بإصلاحِها؛ أولى به مِنْ تتبُّعِ عثراتِ النَّاسِ، وبأنْ أَذْكُرَ فضلَ صديقي، فأُبَكِّتُهُ[2] على اقتصارِهِ على ذكرِ العَيْبِ دونَ ذِكْرِ الفضيلةِ، وأَنْ أقولَ له: إنَّه لا يرضى بذلك فيكَ، فهو أولى بالكرمِ منكَ، فلا ترضَ لنفسِكَ بهذا. أو نحو هذا من القول.

وأمَّا أنْ أهارِشَ[3] القائلَ فأُحَمِّيه، وأُهَيِّجَ طباعه، وأَسْتَثيرَ غضبه، فينبعث منه في صديقي أَضعافُ ما أكره، فأنا الْجاني ـ حِينَئِذٍ ـ على صديقي، والمعرِّضُ له لقبِيح السَّبِّ، وتكرارِهِ فيه، وإِسْماعِهِ مَنْ لم يسمعْه، والإغراءِ به.

وربَّما كنتُ ـ أيضاً ـ في ذلكَ جانياً على نفسي ما لا ينبغي لصديقي أنْ يرضاه لي مِنْ إسماعي الجفاءَ والمكروهَ، وأنا لا أريدُ مِنْ صديقي أنْ يَذُبَّ عَنِّي

---

(1) **التهمم**: الاهتمام.

(2) **أبكته**: أقرعه وأعنفه.

(3) **أهارش**: أخاصم وأقاتل.

[23/أ] بأكثرِ مِنَ الوجهِ الذي حدَّدْتُ، فإنْ تعدَّى ذلكَ إلى أنْ يُسَابَّ النائلُ منِّي حتَّى يُوَلِّدَ بذلك أن يتضاعَفَ النَّيْلُ، وأنْ يتعدَّى ـ أيضاً ـ إليه بقبيحِ المُواجهةِ، وربَّما إلى أبويَّ وأبَوَيْهِ على قَدْرِ سَفَهِ النائل، ومنزلَتِهِ من البَذَاءِ، وربَّما كانت منازعةٌ بالأَيْدي؛ فأنا مُسْتَنْقِصٌ لفعله في ذلك، زارٍ[1] عليه، متَظلِّمٌ منه، غيرُ شاكرٍ له، لكنِّي أَلُومُهُ على ذلك أشدَّ اللوْمِ، وبالله تعالى التوفيق.

• وذمَّني أيضاً بعضُ مَنْ تعسَّفَ الأمورَ دونَ تحقيقٍ، بأنِّي أُضَيِّعُ مالي.

وهذه جُملَةٌ، بيانُها: أنِّي لا أُضَيِّعُ منه إلَّا ما كان في حِفْظِه نَقْصُ ديني، أو إخْلاقُ عِرْضي، أو إتْعابُ نفسي، فإنِّي أرى الذي أحفظُ مِنْ هذه الثَّلاثةِ ـ وإنْ قلَّ ـ أَجلُّ في العِوَضِ ممَّا يَضيعُ مِنْ مالي، ولو أنَّه كلُّ ما ذَرَّتْ[2] عليه الشَّمْسُ.

• ووجَدْتُ أفضلَ نِعَمِ اللهِ تعالى على المَرْءِ أنْ

---

(1) **زرى عليه**: عابه، وأنكر عليه.

(2) **ذرّت**: طلعت.

يَطْبَعَهُ [23/ب] على العَدْلِ وحُبِّه، وعلى الحقِّ وإيثارِهِ، فما استعنتُ على قَمْعِ هذه الطَّوالعِ الفاسدةِ، وعلى كلِّ خيرٍ في الدِّين والدنيا؛ إلَّا بما في قُوَّتي من ذلكَ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله تعالى.

• وأمَّا مَنْ طُبعَ على الجوْرِ واسْتِسْهالِهِ، وعلى الظُّلْم واسْتِخْفَافِهِ؛ فَلْيَيْئَسْ مِنْ أنْ يُصْلِحَ نَفْسَهُ، أو يُقَوِّمَ طباعَهُ أبداً، ولْيَعْلَمْ أنَّه لا يُفْلِحُ في دينٍ، ولا في خُلُقٍ مَحْمُودٍ.

• وأمَّا الزَّهْوُ، والحَسَدُ، والكَذِبُ، والخيانةُ؛ فلم أَعْرِفْها بطَبْعي قطُّ، وكأنِّي لا حَمْدَ لي في تركِهَا، لمنافرةِ جِبلَّتي[1] إيَّاها، والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

عيب حب الذكر

• مِنْ عَيْبِ حُبِّ الذِّكْرِ أَنَّه يُحْبِطُ الأعمالَ إذا أحبَّ عامِلُها أن يُذْكَرَ بِها، فكادَ يكونُ شِرْكاً، لأنَّه يَعْمَلُ لِغَير اللهِ ﷻ، وهُوَ يَطْمِسُ الفضائلَ، لأنَّ صاحِبَهُ لا يكادُ يَفْعَلُ الخيرَ حبّاً للخيرِ، لكنْ لِيُذْكَرَ بِهِ.

---

(1) **جبلتي**: طبيعتي.

أبلغ في ذمك

• أَبلغَ في ذَمِّكَ [24/أ] مَنْ مَدَحَكَ بما لَيْسَ فِيكَ لأنَّه نَبَّهَ على نَقْصِكَ.

أبلغ في مدحك

• وأبلغَ في مَدْحِكَ مَنْ ذمَّك بما لَيْسَ فِيكَ، لأنَّه نَبَّهَ على فَضْلِكَ، ولَقَد انْتَصَرَ لك مِنْ نَفْسهِ بذلك، وباسْتِهْدافه إلى الإنكار واللائِمَةِ.

لو علم الناقص نقصه

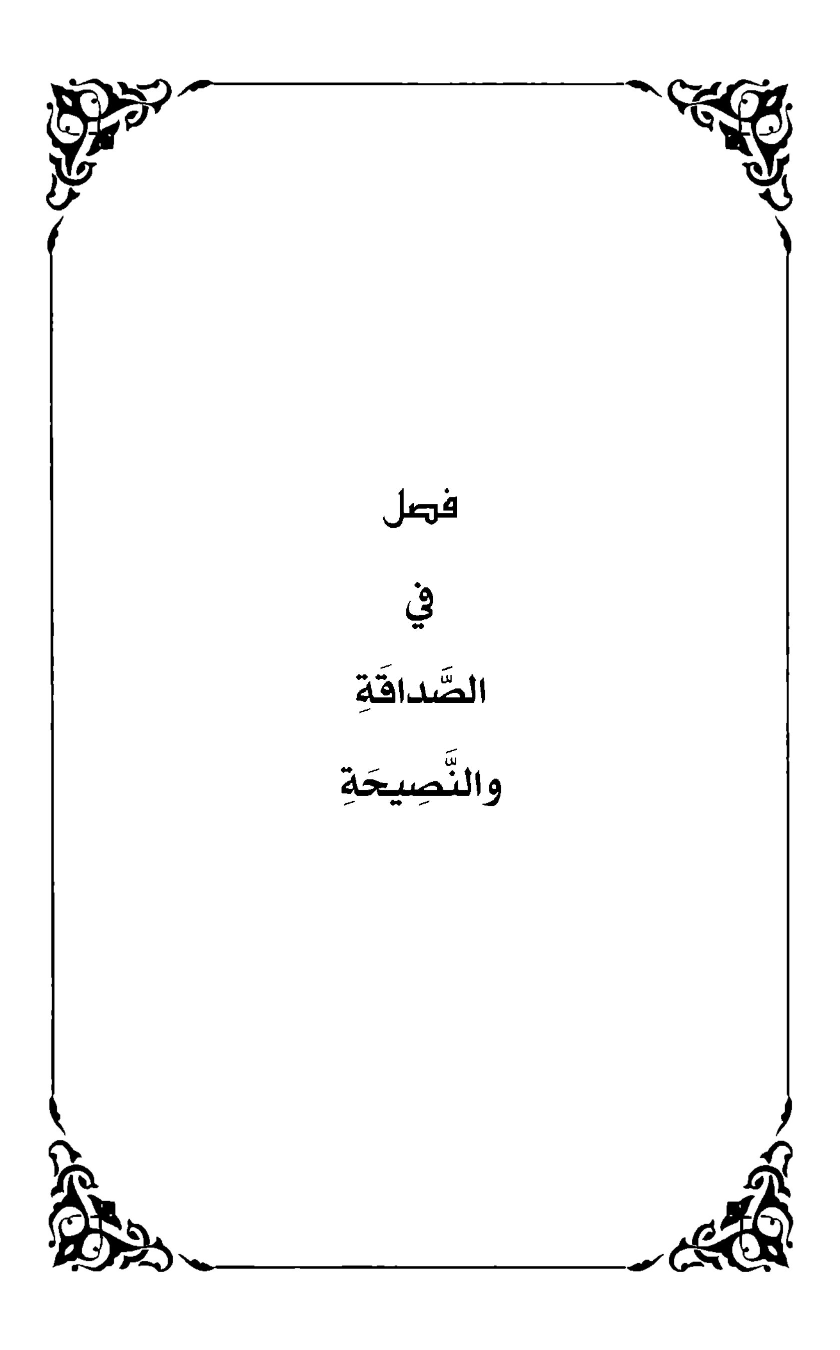
• لو عَلِمَ النَّاقِصُ نَقْصَه لكان كاملاً.

السعيد من قلّت عيوبه

• لا يَخْلُو مخلوقٌ مِنْ عَيْبٍ، فالسَّعِيدُ مَنْ قَلَّتْ عيُوبُه ودَقَّتْ.

الحزم هو التأهب لما يظن

• أكثرُ ما يكونُ ما لم يُظَنَّ، والحَزْمُ هو التَّأَهُّبُ لما يُظَنُّ. فسُبْحانَ مُرتِّبِ ذلك ليُرِيَ الإنسانَ عَجْزَهُ وافْتِقارَهُ إلى خالِقِهِ تعالى.



فصل

في

الصَّداقَةِ

والنَّصِيحَةِ

فضل العتاب

• اسْتَبْقَاكَ مَنْ عاتَبَكَ، وزَهَدَ فِيكَ مَنِ اسْتَهانَ بسيِّئاتِكَ.

العتاب للصديق

• العتابُ للصَّديقِ كالسَّبْكِ للسَّبِيكَةِ، فإمَّا تَصْفُو، وإمَّا تَطِيرُ.

طي السر وإفشاؤه

• مَنْ طوى مِنْ إخوانِكَ سِرَّهُ الَّذي يَعْنِيكَ دُونَكَ؛ أخونُ لَكَ مِمَّنْ أفشى سِرَّك، لأنَّ مَنْ أفشى [24/ب] سِرَّكَ فإنَّما خانَكَ فقط، ومن طوى سِرَّهُ دُونَكَ مِنْهُمْ فَقَدْ خانَكَ واسْتَخْوَنَكَ.

مقياس الرغبة في الناس

• لا تَرْغَبْ فيمَنْ يَزْهَدُ فيك، فتَحصُلَ على الخَيْبَةِ والخِزْي.

• لا تَزْهَدْ فِيمَنْ يَرْغَبُ فيكَ، فإنَّه بابٌ من أَبوابِ الظُّلْمِ، وتَرْكِ مقارَضَةِ الإِحسانِ، وهذا قَبِيحٌ.

نصيحة لمخالطة الناس

• من امْتُحِنَ بأنْ يُخَالِطَ النَّاسَ فلا يُلْقِ بَوهْمِهِ كلِّه إلى مَنْ صَحِبَ، ولا يَبْنِ منه إلَّا على أنَّه عدوٌّ مُنَاصِبٌ، ولا يُصْبِحْ كلَّ غداةٍ إلَّا وهو مُتَرَقِّبٌ من غَدْرِ إخوانِهِ، وسوءِ معاملتِهم؛ مِثْلَ ما يترقَّبُ من العدوِّ المكاشِفِ(1)، فإنْ سَلِمَ مِنَ ذلك؛ فللهِ الحمدُ، وإنْ كانتِ الأُخرى؛ أُلفيَ متأهِّباً، ولم يَمُتْ هَمّاً.

تغيير الصديق بعد الصفاء

• وأنا أُعْلِمُكَ أنَّ بعضَ مَنْ خالَصَنِي المودَّةَ، وأصفاني إيَّاها غايةَ الصَّفاءِ في حالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والسَّعَةِ والضِّيقِ، والغَضَبِ والرِّضا؛ تغيَّرَ عليَّ أقبحَ تَغَيُّرٍ بَعْدَ اثْنَيْ عَشَرَ عاماً متَّصِلَةً في [25/أ] غايةِ الصَّفاءِ، لسَبَبٍ لَطِيفٍ جدّاً، ما قدَّرْتُ قطُّ أنَّه يُؤَثِّرُ مثلُهُ في أحدٍ

---

(1) **العدو المكاشف**: العدو الظاهر العداوة.

من النَّاس، وما صَلَحَ لي بعدها، ولقد أهمَّني ذلك سِنِينَ كثيرةً همّاً شَدِيداً.

ولكنْ لا تَسْتَعْمِلْ مع هذا سوءَ المعاملةِ؛ فتَلْحَقَ بذوي الشَّرارةِ من النَّاسِ، وأهلِ الخَبِّ[1] منهم.

طريق وعرة المسالك تحتاج للحزم والنباهة

● ولكنْ هاهنا طريقٌ وَعِرَةُ المسْلَكِ، شاقَّةُ المتُكلَّف، يحتاجُ سالِكُها إلى أن يكونَ أهدى مِنَ القَطا[2]، وأحْذَرَ من العَقْعَقِ[3] حتَّى يُفارِقَ النَّاسَ راحلاً إلى ربِّه تعالى، وهذه الطريقُ هي طريقُ الفوزِ في الدِّينِ والدُّنيا، يُحْرِزُ صاحبُها صفاءَ نِيّاتِ ذوي النُّفوسِ

(1) **الخَب**: الخداع والإفساد.
(2) **القطا**: جنس طير، الواحدة قطاة، أنواعه عديدة قريبة الشبه من الحمام، وهي سريعة الطيران، وتعيش أسراباً كبيرة، يضرب المثل به بالاهتداء، فيقال: أهدى من القطا.
(3) **العَقْعَق**: جنس طير من الفصيلة الغرابية، وهي ذكية شرسة تعد من أضر الطيور. يضرب به المثل في الحذر، فيقال: أحذرُ من العقعق.

السَّليمةِ، والعُقُودِ الصَّحيحةِ، البُرآءِ من المَكْرِ والخَديعةِ، ويَحْوي فضائِلَ الأبرار، وسجايا الفُضَلاءِ، ويَحْصُلُ مع ذلكَ على سلامةِ الدُّهاةِ، وتَخَلُّصِ الخُبَثاءِ ذوي النَّكْراءِ والدَّهاءِ، وهي:

لا تفشِ سرّك إلى أحدٍ

• أنْ تكْتُمَ سِرَّ كُلِّ مَنْ وَثِقَ بك، وألّا تُفْشيَ [25/ب] إلى أحدٍ مِنْ إخوانِكَ، ولا مِنْ غيرِهِمْ مِنْ سِرِّكَ ما يُمْكِنُكَ طَيُّهُ بوجهٍ من الوُجُوهِ، ولو أنَّهُ أخصُّ النَّاسِ بك.

لا تأمن أحداً على شيءٍ

• وأنْ تفي لجَميعِ من ائْتَمنكَ، ولا تأمَنْ أحداً على شيءٍ مِنْ أمرِكَ؛ تُشْفِقُ عليه، إلَّا عَنْ ضرورةٍ لا بُدَّ منها، فارْتَدْ[1] حِينَئِذٍ واجْتَهِدْ، وعلى الله تعالى الكفايةُ.

ابذل مالك لكل من سألك أو لم يسألك

• وابذُلْ فضلَ مالِكَ وجاهِكَ لِكُلِّ مَنْ سأَلَكَ، أَوْ

---

(1) **ارتد**: من الريادة، وهي الاستكشاف والاستطلاع.

لَمْ يَسْأَلْكَ، ولكلِّ مَنِ احتاجَ إليكَ، وأمكنَكَ نَفْعُه، وإنْ لم يَعْتَمِدْكَ[1] بالرَّغبةِ، ولا تُشْعِرْ نفسَكَ انتظارَ مقارَضَةٍ[2] على ذلك مِنْ غَيْرِ ربِّكَ ﷻ، ولا تَبْنِ إلَّا على أنَّ مَنْ أحسنتَ إليه؛ أوَّلُ مُضِرٍّ بكَ، وساعٍ عليكَ، فإنَّ ذوي التَّراكِيبِ الخَبيثَةِ يُبْغِضُونَ ـ لشدَّةِ الحَسَدِ ـ مَنْ أحْسَنَ إليهم؛ إذا رأَوْه في أعلى مِنْ أَحوالِهِم.

المعاملة بأجمل معاملة

• وعامِلْ كُلَّ أحدٍ في الأُنْسِ أجملَ معاملةٍ، وأضْمِرِ السُّلُوَّ عنه، إنْ فاتَ ببعضِ الآفاتِ التي تأتي مع [26/أ] مرورِ الأيَّامِ والليالي؛ تَعِشْ مُسالماً مُسْتريحاً.

تأدية ما عليك من خير

• لا تَنْصَحْ على شرطِ القَبُولِ، ولا تَشْفَعْ على شَرْطِ الإجابةِ، ولا تَهَبْ على شرطِ الإثابةِ، لكنْ على سبيلِ استعمالِ الفَضْلِ، وتأدِيَةِ ما عليكَ من النَّصِيحةِ، والشَّفاعةِ، وبَذْلِ المَعْرُوفِ.

---

(1) **يعتمدك**: يقصدك.

(2) في (ز): مقارضته، وما أثبته من (ش)، **والمقارضة**: الجزاء.

حدّ الصداقة

• حَدُّ الصَّداقةِ ـ الذي يدورُ على طرفيْ مَحْدُودِهِ ـ هو أنْ يكونَ المرءُ يَسُوءُهُ ما يسوءُ الآخرَ، ويسرُّهُ ما يسرُّهُ، فما سَفَلَ عَنْ هذا فليسَ صديقاً، ومَنْ حملَ هذه الصِّفةَ فهو صدِيقٌ، وقد يكونُ المرءُ صديقاً لمَنْ ليسَ صِديقَهُ.

الإنسان قد يحب من يبغضه

• وأمَّا الَّذي يدخل في باب الإضافة فهو المُصادِقُ، فهذا يقتضي فعلاً من فاعِلين، إذْ قَدْ يُحِبُّ الإنسانُ مَنْ يُبْغِضُهُ، وأكثرُ ذلكَ في الآباءِ مع الأبناءِ، وفي الإخوةِ مع إخْوَتِهم، وبين الأزواجِ، وفِيمَنْ صارتْ محبَّتُه عِشْقاً.

كل ناصح صديق

• وليسَ كلُّ صديقٍ ناصحاً، لكن كلُّ [26/ب] ناصحٍ صَديقٌ فيما نَصَحَ فِيْهِ.

الزائد على شروط الصداقة

• وحدُّ النَّصيحةِ هو أنْ يَسُوْءَ المرءَ ما ضَرَّ الآخرَ، ساءَ ذلكَ الآخرَ، أو لم يَسُؤْهُ، وأنْ يَسُرَّه ما نفعَهُ، سَرَّ الآخرَ أو ساءَه، فهذا شَرْطٌ في النَّصيحة، زائِدٌ على شُرُوطِ الصَّداقة.

أقصى غايات الصداقة

• وأقصى غاياتِ الصَّداقةِ الَّتي لا مَزِيدَ فيها؛ مَنْ شارَكَكَ بنَفْسِهِ ومالِهِ لغَيْرِ علَّةٍ تُوجِبُ ذلكَ، وآثرك على مَنْ سواكَ. ولولا أنِّي شاهَدْتُ مُظَفَّراً ومُباركاً[1] ـ صاحِبَيْ بَلَنْسِيَةَ ـ لقدَّرتُ أنَّ هذا الخُلُقَ مَعْدومٌ في زمانِنَا، ولكِنِّي ما رأيتُ ـ قطُّ ـ رجلَيْنِ استَوْفَيا جميعَ أسبابِ الصَّداقة ـ مع تأتِّي الأحوالِ المُوجِبَة للفُرْقة ـ غَيْرَهُما.

فضائل أشبه بالرذائل

• ليسَ شيءٌ من الفضائلِ أشْبَهَ بالرَّذائلِ من

---

(1) وابن حزم يشير إلى صداقة فذة ربطت بينهما.

الاسْتِكْثار من الإخوانِ والأصدقاءِ، فإنَّ ذلكَ فَضِيلَةٌ تامَّةٌ، متركِّبةٌ، لأنَّهم لا يُكْتَسبُونَ إلّا بالحِلْم، والجُودِ، والصّبْرِ، والوفاءِ، والاسْتِضْلاع، والمُشَارَكةِ، والعِفَّةِ [27/أ] وحُسْنِ الدِّفاع، وتَعْلِيم العِلْمِ، وبكلِّ حالةٍ مَحْمُودَةٍ.

● ولسنا نعني الشَّاكريةَ[1] والأتباعَ أيَّام الحُرْمَةِ[2]، فأولئكَ لُصُوصُ الإخوانِ، وخَبَثُ الأَصْدِقَاءِ، والَّذين يُظَنُّ أنَّهم أولياءُ، وليسوا كذلك، ودليلُ ذلكَ انْحِرافُهُم عندَ انحرافِ الدُّنيا.

ليسوا أصدقاء!

● ولا نعني ـ أيضاً ـ المُصَادِقينَ لبعض الأَطماعِ، ولا المُتَنَادِمِينَ على الخَمْرِ، والمُجْتَمِعينَ على المعاصي والقبائحِ، والمُتَألِّفِينَ على النَّيْلِ من أعراضِ النَّاس، والأخذِ في الفُضُولِ، وما لا فائدةَ فيه؛ فليسَ هؤلاءِ

(1) **الشَّاكريّ**: الأجير، قيل: إنّه معرَّب جاكر. ومعناه: السخري.
(2) **أيام الحرمة**: أيام الجاه والسلطان، وفي (ش): أيام الدنيا، لانحرافهم عند انحراف الدنيا.

أصدقاءَ، ودَليلُ ذلك أنَّ بعضَهم يَنالُ مِنْ بعضٍ، ويَنْحرِفُ عنه؛ عند فَقْدِ تلكَ الرَّذائل التي جمعتْهم، وإنَّما نعني إخوانَ الصَّفاءِ لغير معنًى إلَّا للهِ ﷻ؛ إمَّا للتَّناصُرِ على بعض الفضائلِ الجِدِّية؛ وإمَّا لنَفْسِ المَحَبَّةِ المجرَّدةِ فقط.

من عيوب الاستكثار من الأصدقاء

• ولكنْ إذا أحْصَيْتَ عيوبَ [27/ب] الاستكثارِ منهم، وصعوبةَ الحالِ في إرضائهم، والغَرَرَ في مشاركتِهم، وما يَلْزَمُكَ مِنَ الحقِّ لهم عندَ نَكْبةٍ تَعْرِضُ لهم؛ فإنْ غدرتَ بهم، أو أسْلَمْتَهُم لُوِّمْتَ وذُمِمْتَ، وإنْ وَفَيْتَ أضْرَرْتَ بنفسِك، وربَّما هَلَكْتَ. وهذا الَّذي لا يرضَى الفاضِلُ بسواهُ إذا تَنَشَّبَ في الصَّداقة.

وإذا تَفَكَّرْتَ في الهمِّ بما يَعْرِضُ لهم وفيهم من مَوْتٍ، أو فراقٍ، أو غَدْرِ مَنْ يغدِرُ منهم؛ كادَ[1] السُّرور لا يفي بالحُزْنِ المُمِضِّ مِنْ أَجْلِهم.

---

(1) في (ش): (كان).

رذائل أشبه بالفضائل

• وليسَ في الرَّذائل [شَيءٌ][1] أشبَهَ بالفضائلِ مِنْ محبَّةِ المَدْحِ، ودليلُ ذلكَ؛ أنَّه في الوَجْه سُخْفٌ مِمَّن يرضى به، وقَدْ جاءَ في الأثرِ في المَدَّاحِينَ ما جاءَ[2]؛ إلَّا أنَّه قد يُنْتَفَعُ به في الإقْصارِ عن الشَّرِّ، والتَّزَيُّدِ من الخيرِ، وفي أنْ يَرْغَبَ في ذلك الخُلُقِ المَمْدوحُ.

قد ينفع المدح أحياناً

• ولقد صَحَّ عندي أنَّ بعضَ السَّائسينَ[3] للدُّنيا لَقِيَ رجلاً من أهلِ الأذى للنَّاس [28/أ] ـ وقَدْ قُلِّدَ بعضَ الأعمالِ الخَبيثةِ ـ فقابَلَهُ بالثَّناءِ عَلَيْه، وبأنَّه قَدْ سَمِعَ

---

(1) زيادة من (ش).

(2) من ذلك قول رسول الله ﷺ: **«إذا رأَيتُمُ المدَّاحِينَ، فَاحْثُوا على وُجُوهِهِمُ التُّرابَ»** رواه مسلم (3002). فمن حمل الحديثَ على ظاهره حثا الترابَ في وجه المادح، ومن حمله على المجاز: حرم المادح من العطاء والجائزة، فخيّب ظنّه.

(3) **السائسون للدنيا**: الخبيرون بأحوالها، وأصلها من سياسة الخيل؛ أي: ترويضها والعناية بها.

شُكْرَه مُسْتفيضاً، ووَصْفَهُ بالجميلِ والرِّفْقِ مُنْتَشِراً، فكانَ ذلك سبباً إلى إقصارِ ذلك الفاسقِ عن كثيرٍ مِنْ شَرِّه.

كتمان الذّمّ

• بعضُ أنواعِ النَّصيحةِ يُشْكِلُ تَمْيِيزُهُ مِنَ النَّمِيمَةِ، لأنَّ مَنْ سمعَ إنساناً يذمُّ آخرَ ظالماً له، أو يَكِيدُهُ ظالماً له؛ فكَتَمَ ذلك عن المَقُولِ فيه والمَكِيدِ؛ كان الكاتِمُ لذلك ظالِماً مَذْموماً.

ثُمَّ إنْ أعلَمَه بذلكَ على وجهه، كانَ ربَّما قد وَلَّدَ على الذَّامِّ والكايدِ ما لم يَبْلُغْه استحقاقُه بَعْدُ من الأذى، فيكونُ ظالماً له، وليسَ مِنَ الحقِّ أَنْ يُقْتَصَّ من الظَّالم بأكثرَ مِنْ قَدْرِ ظُلْمِهِ، فالتخلُّصُ في هذا البابِ صَعْبٌ إلَّا على ذوي العقول.

• والرأيُ للعاقلِ في مِثْلِ هذا أَنْ يُحَفِّظَ[1] المَقُولَ فيه مِنَ القائلِ ـ فَقَطْ ـ دونَ أنْ يبلِّغَه ما قالَ؛ لئلّا يقعَ في الاسْتِرْسالِ زائدٌ[2]؛ فيَهْلِكَ.

---

(1) **يحفِّظ**: يحذر.

(2) في ش: (إليه).

● [28/ب] وأمَّا في الكَيْدِ؛ فالواجِبُ أنْ يُحَفِّظَهُ مِنَ الوجهِ الذي يُكَادُ منه بأَلْطَفِ ما يَقْدِرُ في الكِتْمانِ على الكايدِ، وأبلغِ ما يَقْدِرُ في تَحْفِيظِ المَكيدِ، ولا يَزِدْ على هذا شيئاً.

● وأمَّا النَّمِيمةُ فهي التبليغُ لما سَمِعَ ممَّا لا ضَرَرَ فيهِ على المُبَلِّغِ إليه، وبالله التَّوْفِيقُ.

النصيحة مرتان

● النَّصيحَةُ مرَّتانِ:

فالأُولى: فَرْضٌ وديانةٌ.

والثَّانيةُ: تَنْبِيهٌ وتذكيرٌ.

وأمَّا الثالثةُ: فتَوْبِيخٌ وتَقْرِيعٌ، وليسَ وراءَ ذلك إلَّا الرَّكْلُ واللِّطامُ، وربَّما أشدُّ مِنْ ذلك من البغي والأذى، اللهمَّ إلَّا في معاني الدِّيانةِ، فواجبٌ على المرءِ تِرْدادُ النُّصْحِ فيها، رَضِيَ المنصوحُ أو سَخِطَ، تأذَّى النَّاصحُ بذلك أو لم يَتَأَذَّ.

إذا نصحت فانصح سِرّاً

● إذا نصحتَ فانْصَحْ سِرّاً لا جهراً، وبتَعْرِيضٍ

لا تصريحٍ، إلَّا لِمَنْ لا يَفْهَمُ، فلا بُدَّ مِنَ التَّصْريحِ له، ولا تَنْصَحْ على شرطِ القبولِ منكَ، فإنْ تعدَّيْتَ هذه الوجوهَ فأنتَ ظالِمٌ لا ناصِحٌ، [29/أ] وطالبُ طاعةٍ ومُلْكٍ لا مُؤَدِّي حَقِّ أمانةٍ وأخوَّةٍ، وليسَ هذا حُكْمَ العقلِ، ولا حكمَ الصَّداقةِ، لكنْ حكم الأميرِ مع رَعِيَّتِهِ، والسَّيِّدِ مع عَبْدِهِ.

لا تكلّف صديقك

• لا تُكَلِّفْ صديقَكَ إلَّا مِثْلَ ما تَبْذُلُ له مِنْ نفسِكَ، فإنْ طَلَبْتَ أكثرَ فأنتَ ظالِمٌ.

• ولا تَكْسِبْ إلَّا على شرطِ الفَقْدِ، ولا تتولَّ إلَّا على شرطِ العُزْلَةِ، وإلَّا فأنتَ مُضِرٌّ بنفسِكَ، خبيثُ السِّيرةِ.

المسامحة المذمومة
والمسامحة المحمودة

• مسامَحَةُ أهلِ الاسْتِئْثَارِ، والاستِغْنامِ[1]، والتَّغافُلُ

(1) **الاستغنام**: انتهاز الغنيمة.

لهم؛ ليسَ مُرُوْءَةً ولا فضيلةً، بل هو مَهانةٌ وضَعْفٌ، وتَضْرِيةٌ[1] لهم على التمادي على ذلكَ الخُلُقِ المذمومِ، وتَغْبِيطٌ لهم به، وعَوْن على ذلكَ الفعلِ السُّوءِ.

● وإنَّما تكونُ المسامحةُ مروءةً لأهلِ الإنصافِ، المبادرينَ إلى الإنصافِ والإيثارِ، فهؤلاءِ فرضٌ على أهلِ الفَضْل أنْ يعامِلوهُم بمِثْلِ ذلك، لا سِيَّما إنْ كانَتْ حاجتُهُم أمَسَّ، وضرورتُهُم أَشَدَّ.

● [فإنْ قالَ قائِلٌ: فإذا كانَ كلامُكَ هذا موجِباً لإسقاطِ المُسَامحةِ، والتَّغافِلِ للإخوانِ، فقد استوى الصَّدِيقُ والعدوُّ والأجنبيُّ في المعاملةِ، وهذا إفسادٌ ظاهِرٌ.

فنَقولُ ـ وبالله تعالى التَّوفيق ـ: كلَّا؛ ما نَحُضُّ إلَّا على المسامحةِ والإيثارِ والتَّغافُلِ، ليس لأهلِ التَّغَنُّمِ؛ لكن للصَّدِيقِ حقّاً.

فإنْ أردتَ معرفةَ وَجْهِ العملِ في هذا، والوقوفَ على نَهْجِ الحقِّ؛ فإنَّ القِصَّةَ التي توجِبُ الأَثَرةَ مِنَ المرءِ على نفسه صديقَهُ؛ ينبغي لكلِّ واحدٍ من الصَّدِيقَيْنِ أنْ

(1) **تضرية**: إغراءٌ.

يتأمَّلَ ذلك الأَمْرَ، فأيُّهما كانَ أمسَّ حاجةً فِيهِ، وأَظْهَرَ ضرورةً لدَيْهِ، فحُكْمُ الصَّداقةِ والمُرُوءةِ يقتضي للآخرِ، ويوجِبُ عليه؛ أنْ يُؤْثرَ على نفسِهِ في ذلكَ، فإنْ لَمْ يَفْعلْ فهو مُتَغَنِّمٌ، مُسْتَكْثِرٌ، لا ينبغي أَنْ يُسامَحَ البَتَّةَ، إذ ليسَ صدِيقاً ولا أخاً.

فأمَّا إذا اسْتَوتْ حاجتُهُما، واتَّفَقَتْ ضَرُورَتُهُمَا، فحَقُّ الصَّداقَةِ ـ هاهنا ـ أنْ يُسَارِعَ كلٌّ واحدٍ منهما إلى الأَثَرَةِ على نفسِهِ، فإنْ فعلا ذلَك فَهُما صَدِيقانِ، وإنْ بَدَرَ أحَدُهما إلى ذلك، ولم يُبادِرِ الآخرُ إليه؛ فإنْ كانت عادَتُهُ هذه فليسَ صديقاً، ولا يَنْبغي أنْ يُعامَلَ معاملةَ الصَّداقة، وإنْ كانَ قد يُبادِرُ هو أيضاً إلى مِثْلِ ذلك فِي قِصَّةٍ أخرى؛ فهما صَدِيقانِ](1).

اقضِ الحوائج كما يريدها أصحابها

● مَنْ [29/ب] أردتَ قضاءَ حاجتِهِ بعدَ أنْ سألَكَ إيَّاها، أو أردتَ ابتداءَهُ بقضائِها، فلا تَعْمَلْ له إلَّا ما يُرِيدُ هُوَ، لا ما تُرِيدُ أنتَ، وإلَّا فأَمْسِكْ.

---

(1) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز)، وثابت في (ش).

فإنْ تعدَّيْتَ هذا؛ كنتَ مُسِيئاً لا مُحْسِناً، ومُسْتَحِقّاً لِلَّوْمِ منه ومِن غَيْرِهِ لا لِلشُّكْرِ، ومُقْتَضِياً لِلعداوة لا للصَّداقَةِ.

فعل الأراذل وفعل الأشرار

• لا تَنْقُلْ إلى صديقِكَ ما يُؤْلِمُ نفسَه، ولا يَنْتَفِعُ بمعرفتِهِ؛ فهذا فِعْلُ الأراذلِ، ولا تَكْتُمْه ما يَسْتَضِرُّ بجهلِهِ؛ فهذا فِعْلُ أهلِ الشَّرِّ.

المدح والذم

• لا يَسُرُّكَ أنْ تُمْدَحَ بِمَا ليسَ فيكَ، بل لِيَعْظُمْ غمُّكَ بذلكَ، لأنَّه نَقْصُكَ يُنَبِّهُ النَّاسَ عليه، ويُسْمِعُهُم إِيَّاه، وسخريةٌ مِنْكَ، وهَزْءٌ بِكَ، ولا يرضى بهذا إلَّا أحمقُ، ضعيفُ العَقْلِ.

• ولا تَأْسَ إذا ذُمِمْتَ بِمَا ليسَ فيكَ، بلِ افْرَحْ به، فإنَّه فَضْلُكَ يُنَبِّهُ الناسَ علَيْه.

ولكن افْرحْ إذا كانَ فيكَ ما تَسْتَحِقُّ به المَدْحَ، وسواءٌ مُدِحْتَ به، أوْ لمْ تُمْدَحْ، واحْزَنْ إذا كانَ فيكَ ما تَسْتَحِقُّ [30/أ] به الذَّمُّ، وسواءٌ ذُمِمْتَ به، أو لم تُذَمَّ.

صون الأعراض

● مَنْ سَمِعَ قائلاً يقولُ في امرأةِ صديقِهِ قولَ سوءٍ؛ فلا يُخْبِرْهُ بذلك أصلاً، لا سِيَّما إنْ كانَ القائلُ عَيَّابَةً، وقَّاعاً في النَّاس، سَلِيطَ اللسانِ، أو دافِعَ مَغْرَمٍ عن نفسه، يُريدُ أن يَكْثُرَ أمثالُه في النَّاس، وهذا كَثِيرٌ مَوجُودٌ.

وبالجملةِ فلا يُحدِّث الإنسانُ إلَّا بالحقِّ، وقولُ هذا القائلِ لا يُدْرى أحقٌّ هُوَ أمْ باطلٌ؟! إلَّا أنَّه في الدِّيانةِ عَظِيمٌ.

● فإنْ سَمِعَ القولَ مُسْتَفيضاً من جماعةٍ، وعَلِمَ أنَّ أصلَ ذلكَ القولِ شائِعٌ، وليسَ راجعاً إلى قولِ إنسانٍ واحدٍ، أو اطَّلعَ على حقيقةٍ، إلَّا أنَّه لا يَقْدِرُ أنْ يوقِفُ صديقَه على ما وَقفَ هُوَ عليه، فَلْيُخْبِرْهُ بذلك بَيْنَهُ وبَيْنَهُ في رفقٍ، ولْيَقُل له: النِّساءُ كَثِيرٌ، أَوْ: حَصِّنْ مَنْزِلَكَ، وثَقِّفْ أهلك، واجْتَنِبْ أمر كذا! وتحفَّظْ من وَجْه كذا!.

فإنْ قَبِلَ المنصوحُ وتحرَّزَ؛ فحظَّ نَفْسِهِ أصابَ، [30/ب] وإنْ رآه لا يتَحفَّظُ ولا يُبالي أمْسَكَ، ولا يعاوِدُهُ

بكلمةٍ، وتمادى[1] على صداقتِه إيَّاه؛ فليسَ في ألَّا يُصَدِّقَهُ في قولِهِ ما يُوجِبُ قَطِيعَتَهُ.

• فإنِ اطَّلَعَ على حقيقةٍ، وقَدِرَ أن يُوقِفَ صديقَهُ على مِثْلِ ما وَقَفَ عليهِ هو من الحقيقةِ، ففَرْضٌ عليه أن يُخْبِرَهُ بذلك، وأن يوقِفَهُ على الجَليَّةِ، فإن غَيَّرَ فذلكَ، وإنْ رآهُ لا يُغَيِّرُ فلْيَجْتَنِبْ صُحْبَتَه، فإنَّه رَذْلٌ، لا خيرَ فيه، ولا نَقيبةَ[2].

في منزل الغير

• ودخولُ رَجُلٍ مُسْتَتِرٍ في منزلِ المرءِ دليلُ سوءٍ لا يحْتَاجُ إلى غَيْرِهِ، ودخولُ المرأةِ في منزلِ رجلٍ على سَبيلِ التَّسَتُّرِ مَثْلُ ذلك أيضاً، وطلبُ دليل أكثرَ من هذَيْنِ سُخْفٌ، وواجبٌ أن تُجْتَنَبَ مُثْلُ هذه المرأةِ، وفِراقُها على كلِّ حالٍ، ومُمْسِكُها لا يَبْعُدُ عن الدِّياثَةِ.

---

(1) **تمادى**: استمرّ.

(2) **النقيبة**: العقل ونفاذ الرأي، وفي (ز): نقية، وفي ش: (بقية) وهم أهل الدين والفضل.

مراتب الأخلاق

● النَّاسُ في أخلاقهم على سَبْعِ مراتبَ:

فطائفةٌ تَمْدَحُ في الوَجْهِ، وتَذَمُّ في المَغِيب، وهذه **صِفَةُ أهلِ** [31/أ] **النِّفاقِ** من العَيَّابِينَ، وهذا خُلُقٌ فاشٍ في النَّاسِ، غالبٌ عليهم.

وطائفةٌ تَذُمُّ في المَشْهَدِ والمَغِيْبِ، وهذِهِ **صفةُ أهل السَّلاطَةِ والوَقاحةِ** مِنَ العَيَّابِينَ.

وطائفةٌ تَمْدَحُ في الوَجْهِ والمَغِيْبِ؛ وهذه **صفةُ أهلِ المَلَقِ والطَّمَعِ**.

وطائفةٌ تَذُمُّ في المَشْهَدِ، وتَمْدَحُ في المَغِيبِ؛ وهذِهِ **صفةُ أهلِ السُّخفِ والنَّواكَةِ**[1].

وأمَّا **أهلُ الفَضْلِ** فيُمْسِكُونَ عن المَدْحِ والذَّمِّ في المُشَاهَدَةِ، ويُثْنُونَ بالخيرِ في المَغِيبِ، أو يُمْسِكُونَ عن الذَّمِّ.

وأمَّا **العَيَّابُونَ** البُرآءُ من النِّفاقِ والقِحَةِ؛ فيُمْسِكُونَ في المَشْهَدِ، ويَذُمُّونَ في المَغِيبِ.

---

(1) **النواكة**: الحُمْقُ.

وأمَّا **أهلُ السَّلامةِ**، فيُمْسِكونَ عن المَدْحِ وعَنِ الذَّمِّ في المَشهَدِ والمَغِيْبِ.

ومِنْ كلِّ هذه الصِّفاتِ قد شاهَدْنا وبَلَوْنا.

من آداب النصيحة

• إذا نَصَحْتَ ففي الخلاءِ بكلامٍ لَيِّنٍ، ولا تُسْنِدْ سَبَّ مَنْ تُحَدِّثُهُ إلى غَيْرِكَ، فتكونَ [31/ب] نَمَّاماً، فإن خَشَّنْتَ كلامَكَ في النَّصيحةِ فذلك إغراءٌ وتَنْفِيرٌ، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: 44]، وقالَ رسول الله ﷺ: «**لا تُنَفِّرُوا**»[1].

وإنْ نصحت بشَرْطِ القَبُولِ مِنْك فأنتَ ظالمٌ، ولعلَّكَ مُخْطِئٌ في وَجْهِ نُصْحِكَ، فتكونَ مطالِباً بقَبُولِ خَطَئِكَ، وبتَرْكِ الصَّوابِ.

الانتفاع بمحكِّ أهل الجهل

• لِكُلِّ شيءٍ فائدةٌ، ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهلِ الجَهْلِ مَنْفعةً عظيمةً، وهي أنَّه تَوَقَّدَ طَبْعي، واحْتَدَمَ

---

(1) جزء من حديث رواه البخاري (69) ومسلم (1734).

خاطري، وحَمِيَ فكري، وتَهَيَّجَ نشاطي، فكانَ ذلكَ سبباً إلى تواليفَ لي عظيمةِ المَنْفعةِ، ولولا اسْتِثارتُهُم ساكني، واقْتِداحُهُم كامِني، ما انْبَعَثْتُ لتلكَ التَّوالِيفِ.

من أسباب القطيعة بين الأصدقاء

● [ولا تُصاهِرْ إلى صديقٍ، ولا تُبايِعْهُ، فما رأينا هذَيْنِ العَمَلَيْنِ إلَّا سبباً للقطيعة، وإنْ ظنَّ أهلُ الجَهْلِ أنَّ فيهما تأكيداً للصِّلَةِ فليسَ كذلك، لأنَّ هذَيْنِ العَقْدَيْنِ داعيانِ كُلَّ واحدٍ إلى طَلَبِ حَظِّ نَفْسِه، والمُؤْثرونَ على أنْفُسِهم قليلٌ جدّاً، فإذا اجتمعَ طلبُ كلِّ امرئٍ [مع][1] حظِّ نفسه؛ وقعتِ المُنازعةُ، ومع وُقُوعِها فسادُ المودَّةِ.

وأَسلمُ المُصاهَرةِ مَغَبَّةً مصاهرةُ الأهلينَ بعضهم بعضاً، لأنَّ القرابةَ تقتضي الصبرَ[2] وإنْ كَرِهُوهُ، لأنَّهم مُضطرُّونَ إلى ما لا انْفِكاكَ لهم منه من الاجتماع في النَّسبِ، الذي تُوجِبُ الطبيعةُ لكلِّ أحدٍ الذَّبَّ عنه، والحمايةَ له][3].

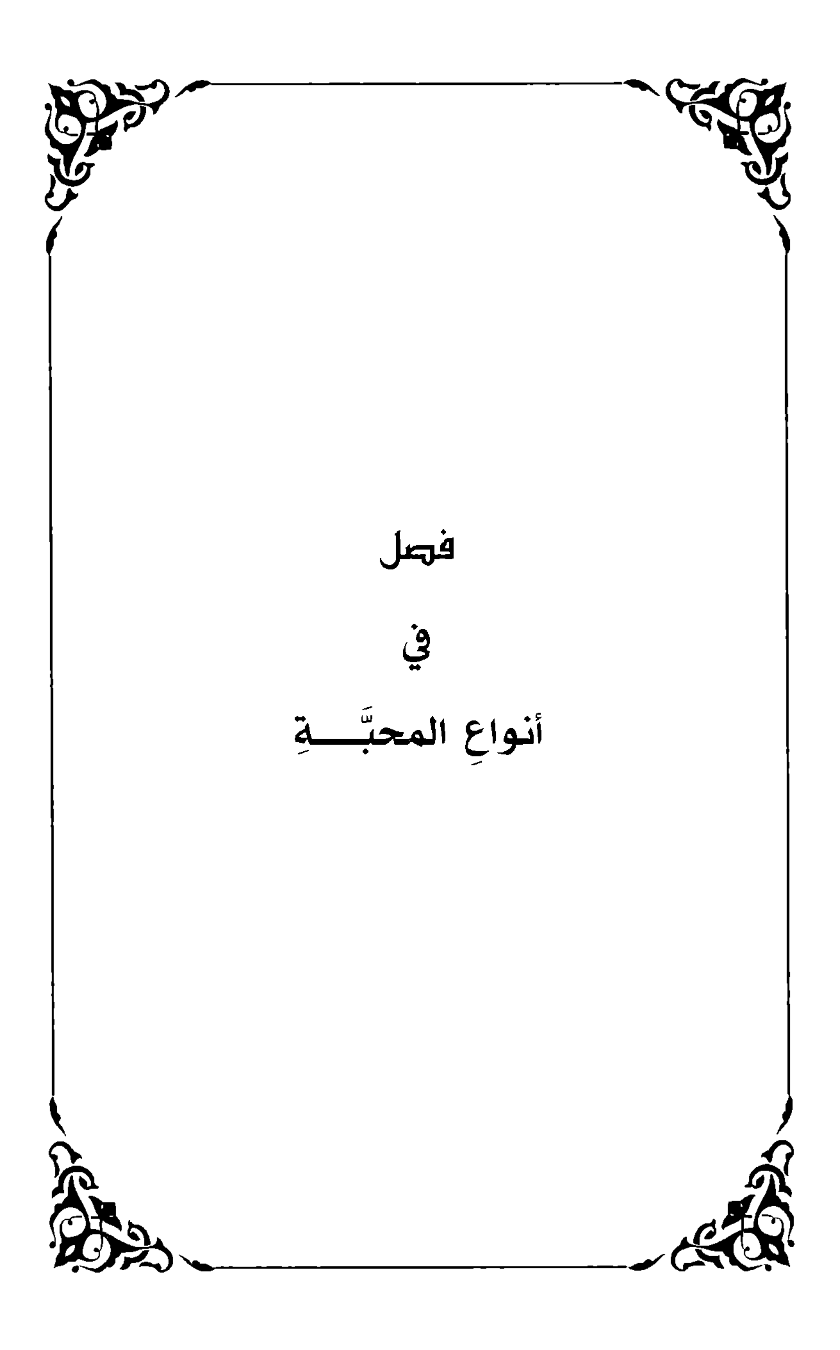


---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) في نسختي الظاهرية: العدل.

(3) هذه الفقرة ساقطة من (ز)، وهي ثابتة في (ش).



فصل

في

أنواعِ المحبَّـــةِ

وقد سُئِلْتُ عن تحقيقِ القولِ فيها، وفي أنواعِها.

المحبة جنسٌ واحد

• المَحَبَّةُ ـ كلُّها ـ جنسٌ واحدٌ، **ورَسْمُها** أنَّها الرغبةُ في المحبوبِ، [32/أ] وكراهيةُ منافَرَتِهِ، والرَّغْبةُ في المقارَضَةِ مِنْهُ بالمحبَّةِ.

تنوع المحبة بتنوع الأغراض فيها

• وإنَّما قَدَّرَ النَّاسُ أنَّها تَخْتَلِفُ مِنْ أجلِ اختلافِ الأغراضِ فيها، وإنَّما اختلفتِ الأغراضُ مِنْ أجلِ اختلافِ الأطماعِ، وتزايُدِها وضعفِها، أو انْحِسَامِها، فتكونُ المحبَّةُ لله ﷻ وفيه، وللاتِّفاقِ على بَعْضِ المطالبِ، [وللأبِ][1] للابنِ، وللقرابَةِ وللصَّديقِ، وللسُّلطانِ، ولِذاتِ الفِراشِ[2]، وللمُحْسِنِ، وللمَأْمُولِ، وللمَعْشُوقِ، فهذا كلُّه جِنْسٌ واحدٌ، اختلفتْ أنواعُهُ ـ كما وصفتُ لكَ ـ على قَدْرِ الطَّمَعِ فيما يُنالُ مِنَ المحبوبِ، فلذلك اختلفتْ وُجُوْهُ المَحَبَّةِ.

---

(1) ساقطة من (ز)، ثابتة في (ش).

(2) **ذات الفراش**: الزوجة أو ما ملكتِ اليمينُ.

• وقد رأَيْنا مَنْ ماتَ أسفاً على ولَدِهِ، كما يَمُوتُ العاشِقُ أسفاً على معشوقِه، وبَلَغَنَا عَمَّنْ شَهِقَ مِنْ خَوْفِ اللهِ تعالى ومحبّتِهِ فماتَ، ونَجِدُ المرءَ يغارُ على سُلْطانه، وعلى صَدِيْقِهِ؛ كما يغارُ على ذاتِ فراشِهِ، وكما يَغارُ العاشِقُ على مَعْشُوقه [32/ب].

• فَأَدْنى أطماع المُحِبِّ مِمَّنْ يُحِبُّ الحَظْوةُ منه، والرِّفعةُ لديه، والزُّلفةُ[1] عنده، إذا لَمْ يَطْمَعْ في أكثر، وهذه غايةُ أطماعِ المُحِبِّينَ للهِ ﷻ.

• ثُمَّ يزيدُ الطَّمعُ في المجالسةِ، ثُمَّ في المحادثةِ، والمُؤَازرةِ، وهذه أطماعُ المَرْءِ في سلطانِهِ وصديقِهِ، وذَوي رَحِمِهِ.

• وأقصى أطماعِ المُحِبِّ ممَّن يُحِبُّ المخالطةُ بالأعضاءِ إذا رجَا ذلك، ولذلكَ نَجِدُ المُحِبَّ المُفْرِطَ المَحَبَّةِ في ذاتِ فراشِهِ يَرْغَبُ في مجامَعَتِها على هيئاتٍ شتَّى، وفي أماكنَ مختلفةٍ، لِيَسْتَكْثِرَ من الاتِّصالِ.

• ويدخُلُ في هذا البابِ المُلامَسَةُ بالجَسَدِ

---

(1) **الزلفة**، والزُّلفى: المنزلة والقُرْبةُ.

والتَّقْبيلُ، وقد يَقَعُ بعضُ هذا الطَّمعِ في الأبِ في ولَدِه، فيتعدَّى إلى التَّقْبيلِ والتَّعْنِيقِ.

• وكلُّ ما ذكرنا إنَّما هو على قَدْرِ الطَّمَع، فإذا انْحَسَمَ الطمعُ عن شيءٍ ما ـ لبعضِ الأسبابِ المُوجَبةِ له ـ مالتِ النَّفسُ إلى ما تَطْمَعُ فيه. [33/أ].

للعادة والاعتقاد الديني تأثير في المحبة

• ونجدُ المُقِرَّ بالرؤيةِ للهِ ﷻ شديدَ الحنينِ إِلَيْهَا، عَظِيمَ النُّزُوعِ نحوها، لا يَقْنَعُ بدرجةٍ دُونها؛ لأَنَّهُ يطمَعُ فيها.

ونجدُ المُنْكِرَ لها لا تَحِنُّ نفسُه إلى ذلك، ولا يتمنَّاه أصلاً؛ لأنَّه لا يَطْمَعُ فيه، ونَجِدُه يَقْتَصِرُ على الرِّضا والحلولِ في دارِ الكرامةِ فقط، لأنَّه لا تَطْمَعُ نفسُه في أكثرَ.

• ونَجِدُ المُسْتَحِلَّ لِنِكَاحِ القرائبِ[1] لا يقنعُ مِنْهُنَّ

---

(1) **القرائب**: جمع قرابة، وهو من جموع القلّة، وهو مقيس في كلّ رباعي مؤنث ثالثه حرف مدٍّ، انظر (الفيصل في ألوان الجموع) لعباس أبو السعود ص(79) وقرابة وصف للمفرد والجمع، يقال: هو قرابتي، وهم قرابتي، وفي (القاموس) يقال: ذو قرابتي، ولا يقال قرابتي.

بما يَقْنَعُ المُحَرِّمُ لذلك، ولا تقفُ محبَّتُهُ حيثُ تَقِفُ محبَّةُ مَنْ لا يَطْمَعُ في ذلك؛ فَنَجدُ مَنْ يستحِلُّ نكاحَ ابْنَتِهِ، وابنةِ أخيه ـ كالمجوسِ واليهودِ ـ لا يَقِفُ مِنْ محبَّتِهما حيثُ يقفُ المُسْلِمُ، بل نجدُهُما يَتَعَشَّقَانِ الابنةَ وابنةَ الأخِ كتَعَشُّقِ المسلم مَنْ يَطْمعُ في مُخالطتِهِ بالجِماعِ، ولا نَجِدُ مُسْلِماً يَبْلُغُ ذلكَ فيهما، ولو أنَّهما أجْمَلُ مِنَ الشَّمس، وكان هُوَ أَعْهَرَ النَّاسِ [33/ب] وأغْزَلَهُم، فإنْ وُجِدَ ذلك في النُّدْرةِ فلا تَجِدُهُ إلَّا مِنْ فاسدِ الدِّين، قد زالَ عَنْهُ ذلك الرَّادعُ، فانْفَسَحَ له الأملُ، وانْفَسَحَ له بابُ الطَّمعِ.

• ولا يُؤْمَنُ مِنَ المُسْلِم أنْ تَفْرُطَ محبَّتُه لابنةِ عمِّهِ لحّاً حتَّى تَصِيرَ عشقاً، وحتَّى تتجاوَزَ محبَّتُهُ لها محبَّتَهُ لابنته، وابنةِ أخيه، وإنْ كانتا أجملَ منها، لأنَّه يطمَعُ من الوصولِ إلى ابنةِ عمِّه حيثُ لا يَطْمَعُ مِنَ الوصولِ إلى ابنته، وابنةِ أخيه.

• ونَجِدُ النَّصْرانِيَّ قد أَمِنَ ذلك مِنْ نفسِه في ابنةِ عمِّه أيضاً، لأنَّه لا يَطْمَعُ منها في ذلكَ، ولا يَأْمَنُ ذلك مِنْ نفسِهِ في أختِهِ من الرَّضاعةِ، لأنَّه طامِعٌ بها في شَرِيعَتِهِ.

• فَلاحَ بهذا عياناً ما ذكرنا مِنْ أنَّ المَحَبَّةَ كلّها جنسٌ واحدٌ، لكنَّها تَخْتَلِفُ أنواعُها على قَدْرِ اختلافِ الأغراضِ فيها، وإلَّا فطبائِعُ البَشَرِ ـ كلِّهم ـ واحدةٌ، إلَّا أنَّ للعادةِ والاعتقادِ [24/أ] الدِّينيّ تأثيراً ظاهراً.

الطمع سبب إلى كلِّ هَمٍّ

• ولسنا نقولُ: إنَّ الطَّمَعَ له تأثيرٌ في هذا الفَنِّ وحدَهُ، لكنَّا نقولُ: إنَّ الطَّمَع سببٌ إلى كلِّ هَمٍّ، وحتَّى في الأموالِ والأحوالِ.

فإنَّنا نجدُ الإنسانَ يموتُ جارُه، وخالُه، وصديقُه، وابنُ عمَّتِه، وعمُّهُ لأمٍّ، وابنُ أخيه لأمٍّ، وجدُّه أبو أمِّه، وابنُ بِنْتِهِ؛ فإذ لا مطمعَ له في **مالِهِ** ارتفعَ عنه الهَمُّ بفَوْتِهِ عَنْ يدِهِ، وإنْ جلَّ خَطَرُهُ، وعَظُمَ مِقْدَارُهُ، فلا سبيلَ إلى أنْ يمرَّ الاهتمامُ بشيءٍ منه ببالِهِ، حتَّى إذا ماتَ له عَصَبَةٌ على بُعْدٍ، أو مَوْلًى على بُعْدٍ، وحَدَثَ له الطَّمَعُ في مالِهِ؛ حَدَثَ لَهُ مِنَ الهَمِّ، والأسفِ، والغَيْظِ، والفِكْرةِ بفوتِ اليَسيرِ منه عن يدِهِ؛ أمرٌ عَظِيمٌ.

وهكذا في **الأحوالِ**، فنجدُ الإنسانَ مِنْ أهلِ الطَّبَقَةِ المتأخِّرةِ لا يهتَمُّ لإنفاذِ غَيْرِه أمورَ بلدِهِ دونَ أمرِه،

ولا لتَقْرِيبِ غيرِهِ وإبْعادِهِ، حتَّى إذا حَدَثَ له طَمَعٌ [34/ ب] في هذه المرتَبَةِ؛ حدثَ له مِنَ الهَمِّ، والفكرةِ، والغَيْظِ؛ أمرٌ ربَّما قادَهُ إلى تلفِ نفسِه، وتَلَفِ دنياه وأُخراه.

فالطَّمَعُ أصلٌ لكلِّ ذُلٍّ، ولكلِّ همٍّ، وهو خُلُقُ سوءٍ ذَمِيمٌ.

النزاهة والطمع

• وضِدُّهُ نزاهةُ النَّفْسِ، وهذه صفةٌ فاضلةٌ متركِّبةٌ من النَّجْدةِ، والجُوْدِ، والعَدْلِ، والفَهْمِ، لأنَّه قد فَهِمَ قِلَّةَ الفائدةِ في استعمالِ ضِدَّها فاستعملها، وكانتْ فيه نَجْدةٌ أنتجتْ له عِزَّةَ نَفْسِهِ فتنَزَّهَ، وكانتْ فيه طَبِيعَةُ [سخاوةِ نفسٍ؛ فلم يَهْتَمَّ لِمَا فاتَهُ، وكانتْ فيه طبيعةُ][1] عدلٍ، حبَّبَتْ إليه القناعةَ، وقِلَّةَ الطَّمَعِ.

فإذاً نزاهةُ النَّفْسِ متركِّبةٌ من هذه الصِّفاتِ، فالطَّمَعُ ـ الذي هو ضِدُّها ـ متركِّبٌ من الصِّفاتِ المضادَّةِ لهذه

---

(1) سقط من (ز).

الصِّفاتِ الأربعِ، وهي: الجُبْنُ، والشُّحُّ، والجَوْرُ، والجهلُ.

لولا الطمع ما ذلّ أحدٌ لأحدٍ

• والرَّغْبةُ طَمَعٌ مُسْتوفًى زائِدٌ مُسْتَعْمَلٌ. ولولا الطَّمعُ ما ذَلَّ أحدٌ لأحدٍ. وأَخْبرني أبو بكرٍ ابنُ أبي الفَيَّاضِ، قالَ: كَتَبَ عثمانُ بنُ مُحَامِسٍ(1) على بابِ داره بإِسْتِجَةَ(٢): «يا عُثْمانُ؛ [35/أ] لا تَطْمَعْ»!.



(1) كان زاهداً عالماً، معروفاً بالعزوف عن الدّنيا، توفي سنة (356هـ)، وروى الحميدي في: «جذوة المقتبس» كلمته هذه عن ابن حزم.

(2) بلد بالأندلس متصلة بأعمال ريّة بين القبلة والمغرب من قرطبة، وهي بلدة قديمة واسعة الرساتيق والأراضي على نهر سَنْجل، وهو نهر غرناطة، وبينها وبين قرطبة عشرة فراسخ (معجم البلدان).

فصول من هذا الباب

قرب وبعد

• مَنِ امْتُحِنَ بقُرْبِ مَنْ يكرهُ؛ كمَن امتُحِنَ ببُعْدِ مَنْ يُحِبُّ، ولا فَرقَ.

دعوة مجابة

• إذا دعا المُحِبُّ في السُّلُوِّ[1] فإجابَتُهُ مضمونَةٌ، ودَعْوتُهُ مُجابَةٌ.

القناعة

• اقْنَعْ بمَنْ عندكَ، يَقْنَعْ بكَ مَنْ عندكَ.

(1) **السلو**: النسيان.

السعيد في المحبة

● السعيدُ في المَحَبَّةِ هو مَنِ ابتليَ بمَنْ يَقْدِرُ أنْ يُلْقِيَ عليه قُفْلَهُ[1]، ولا تلحَقُه في مواصَلَتِهِ تَبِعَةٌ من اللهِ ﷻ، ولا ملَامةٌ من النَّاسِ.

وصلاحُ ذلك: أنْ يتوافَقَا في المحبَّة.

وتَحْرِيرُهُ: أن يكونا خالِيَيْنِ من المَلَلِ، فإنَّه خُلُقُ سوءٍ مُبَغِّضٌ.

وتمامُهُ: نومُ الأيَّامِ عنهُما مُدَّةَ انْتِفاعِ بعضهما ببعضٍ، وأنَّى بذلك إلَّا في الجَنَّة.

وأمَّا **ضمانُهُ** بيقينٍ؛ فليسَ إلَّا فيها[2]، فهي دارُ القَرارِ، وإلَّا فلو حَصَلَ ذلكَ ـ كُلُّه ـ في الدُّنيا؛ لم تُؤْمَنِ الفجائعُ، ولقطَعَ الهَرَمُ دونَ استيعابِ اللَّذَّةِ.

الغيـرة والمحبة

● إذا ارتفعتِ الغَيْرَةُ فأيْقِنْ بارتفاعِ المحبَّةِ.

---

(1) أي: تحلّ له مواصلته بزواج أو ملك يمين.

(2) أي في الجنة.

حدّ الغيــرة

• الغَيْرَةُ خُلُقٌ فاضِلٌ، متركِّبٌ من [35/ب] النَّجْدَةِ والعَدْلِ، لأنَّ مَنْ عَدَلَ كَرِهَ أن يَتَعَدَّى إلى حُرْمَةِ غيره، وأنْ يتعدَّى غيرُهُ على حُرْمَتِهِ.

ومَن كانتِ النَّجْدَةُ طبعاً له حدثتْ فيه عِزَّةٌ، ومِنَ العِزّةِ تحدُثُ الأَنَفَةُ من الاهتضامِ[1].

أحبَّ فغار

• أخبرني بعضُ مَنْ صحبناه في الدَّهْرِ عن نفسِه أنَّه ما عَرَفَ الغيرةَ ـ قطُّ ـ حتَّى ابْتُلِيَ بالمحبَّةِ؛ فغارَ، وكانَ هذا المُخْبِرُ فاسدَ الطَّبْعِ، خبيثَ التَّرْكيب، إلَّا أنَّه كانَ من أهلِ الفَهْمِ والجُودِ.

درجات المحبة

• دَرَجُ المحبَّةِ خَمْسُ [درجاتٍ][2]:

أوَّلُها: **الاستحسانُ**، وهو أن يتَمثَّلَ النَّاظِرُ صورةَ

---

(1) **الاهتضام**: الظلم.

(2) زيادة ليست في الأصول.

المنظورِ إليه حَسَنَةً، أو يَسْتَحْسِنَ أخلاقَهُ، وهذا يَدْخُلُ في باب التَّصادُقِ.

ثُمَّ **الإعجابُ**، وهو رَغْبَةُ النَّاظِرِ في المنظورِ إليهِ، وفي قُرْبِهِ.

ثُمَّ **الأُلْفَة**، وهي الوَحْشَةُ إليه متى غابَ.

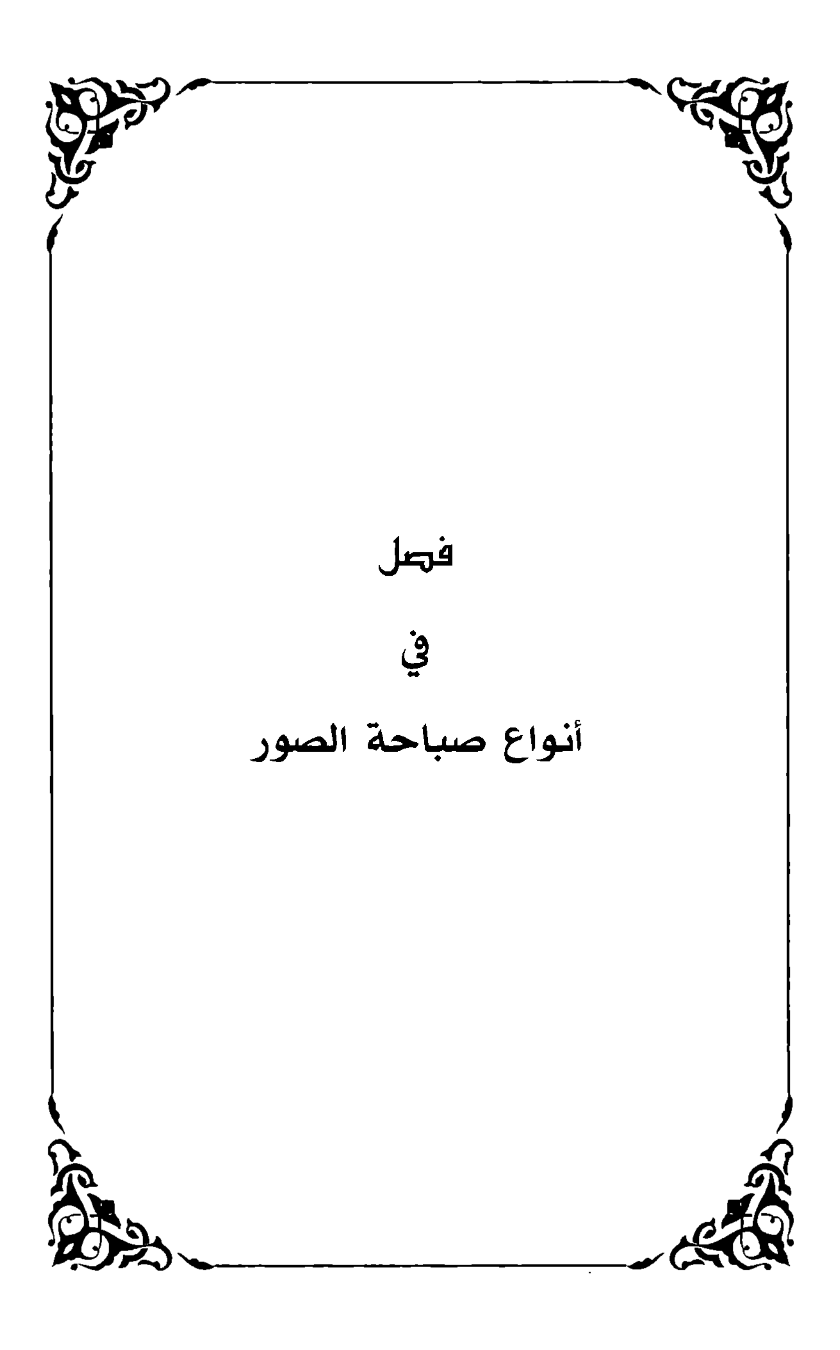
ثُمَّ **الكَلَفُ**، وهو غَلَبَةُ شُغْلِ البالِ بهِ، وهذا النَّوعُ يُسَمَّى في بابِ الغَزَل بالعِشْق.

ثُمَّ **الشَّغَفُ**، وهو امتناعُ النَّومِ، والأكلِ، والشُّربِ؛ إلَّا اليسيرَ [36/أ] مِنْ ذلكَ، وربَّما أدَّى ذلك إلى المَرَضِ، أو إلى التَّوسوسِ، أو إلى المَوْتِ، وليسَ وراءَ ذلِك مَنْزِلَةٌ في تناهي المحبَّةِ أصلاً.

العشق والحدّة في النساء

[**فَصْلٌ**: كُنَّا نَظُنُّ أنَّ العشقَ في ذواتِ الحركةِ والحِدَّةِ من النِّساءِ أكثرُ، فوجدنا الأمرَ بخلافِ ذلك، وهو في السَّاكنةِ الحركاتِ أكثرُ؛ ما لم يَكُنْ ذلك السُّكونُ بَلَهاً][1].

(1) هذا الفصل القصير ساقط من (ز)، أُثبت من (ش).



فصل

في

أنواع صباحة الصور

تحقيق الكلام في أنواع الجمال الحسي

وقد سُئِلْتُ عن تحقيقِ الكلامِ فيها :

• **الحلاوةُ**: رِقَّةُ المَحاسِنِ، ولُطْفُ الحركاتِ، وخِفَّةُ الإشاراتِ، وقَبُولِ النَّفْسِ لأعراضِ الصُّورةِ، وإنْ لَمْ تَكُنْ هنالكَ صفاتٌ ظاهرةٌ.

• **القِوامُ**: جَمَالُ كلِّ صفةٍ على حِدَتِها، ورُبَّ جميلِ الصِّفاتِ على انفرادِ كلِّ صفةٍ منها؛ باردُ الطَّلْعَةِ، غيرُ مليحٍ، ولا حَسَنٍ، ولا رائعٍ، ولا حُلْوٍ.

• **الرَّوْعَةُ**: بهاءُ الأعضاءِ الظَّاهرةِ، مع جمالٍ فيها، وهي أيضاً الفَراهَةُ والعِتْقُ[1].

• **الحُسْنُ**: هو شيءٌ ليسَ لَهُ في اللُّغةِ اسمٌ يُعَبَّرُ بِهِ عَنْهُ غَيْرَهُ! ولكنَّه محسوسٌ في النُّفوسِ باتفاقِ كُلِّ مَنْ رآه، وهو بُرْدٌ[2] مَكْسُوٌّ على الوَجْهِ، وإشراقٌ [36/ب] يَسْتَمِيْلُ القلوبَ نحوَهُ، فَتَجْتَمِعُ الآراءُ على استحسانِهِ، وإنْ لَمْ تكنْ هناكَ صفاتٌ جميلةٌ، وكأنَّه شيءٌ في نَفْسِ

---

(1) **العتق**: الشرف والنجابة.

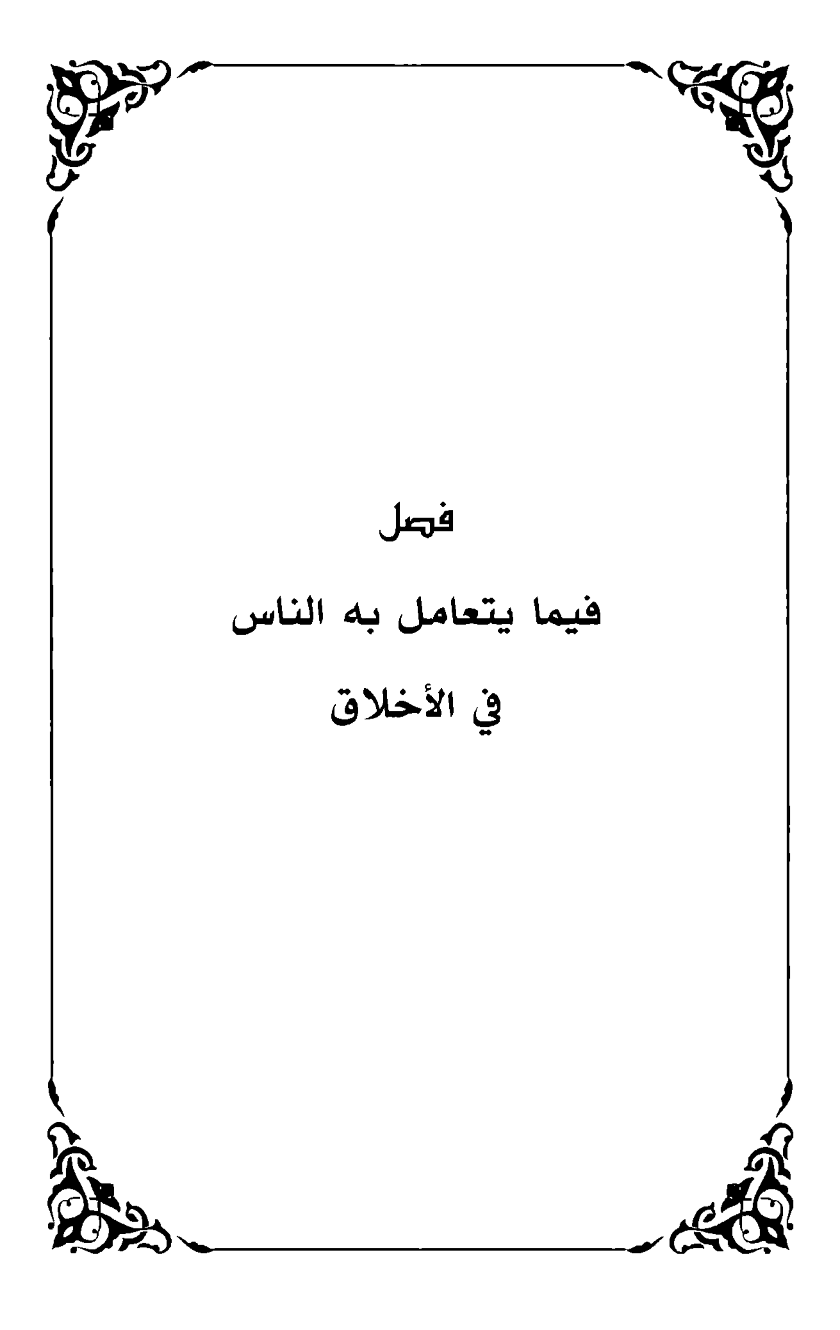
(2) **البرد**: الثوب الموشّى.

المَرْئِيّ تَجِدُهُ نفسُ الرَّائِي، وهذه أجلُّ مراتبِ الصَّباحةِ، لأنَّ كلَّ مَنْ رآهُ راقَهُ، واسْتَحْسَنَهُ، وقَبِلَهُ، حتَّى إذا تأملتَ الصِّفاتِ إفْراداً لم تَرَ طائلاً.

ثُمَّ تختلِفُ الأَهواءُ بَعْدَ هذا، فَمِنْ مُفَضِّلٍ للرَّوْعةِ، ومن مُفَضِّلٍ للحَلاوةِ، وما وجدنا أحداً قَطُّ يفضِّلُ القِوامَ المُنْفَرِدَ.

• **الملَاحةُ**: اجتماعُ شيءٍ بشيءٍ، ممَّا ذكرنا.





فصل

فيما يتعامل به الناس

في الأخلاق

التلون المذموم

• **التَّلَوُّنُ المذمومُ**: هو التنقُّلُ مِنْ زِيٍّ متكلَّفٍ لا معنى له، إلى زيٍّ آخرَ مِثْلَهُ في التَّكَلُّفِ؛ وفي أنَّه لا معنى له، ومن حالٍ لا معنى لها إلى حالٍ لا معنى لها، بلا سببٍ يُوجِبُ ذلك.

وأمَّا مَنِ استعملَ مِنَ الزِّيِّ ما أَمْكَنَهُ ممّا به إليه حاجةٌ، وتركَ التَّزَيُّدَ ممَّا لا يحتاجُ إليه؛ فهذا عَيْنٌ من عيونِ العقلِ والحِكْمةِ [37/أ] كَبيرٌ[1].

رسول الله ﷺ قدوة في كل خير

• وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ ـ وهو القُدْوَةُ في كلِّ خيرٍ، والَّذِي أثْنى اللهُ تعالى على خُلُقِهِ[2]، والَّذي جَمَعَ اللهُ تعالى فيه أَشْتَاتَ الفضائلِ بتمامِها، وأبْعَدَهُ عن كلِّ نقصٍ ـ يعودُ المريضَ مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة، بلا خُفٍّ ولا نَعْلٍ، ولا قَلَنْسُوَةٍ ولا عِمامة،

---

(1) قال ابن حزم (ص73): وأني لا أبالي موافقة أهل بلادي في كثير من زيّهم الذي قد تعوّدوه لغير معنًى.

(2) إشارة إلى قوله تعالى في سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وَيَلْبَسُ الشَّعَرَ إذا حَضَرَهُ، وقد يَلْبَسُ المُوَشَّى من الحِبَراتِ[1] إذا حَضَرَهُ، ولا يَتكَلَّفُ ما لا يَحْتاجُ إليه، وَيَسْتَغْني بما وَجَدَ عمَّا لا يَجِدُ.

ومرَّةً يمشي راجلاً حافياً، ومرَّةً يَلْبَسُ الخُفَّ، ويركَبُ البَغْلَةَ الرَّائعةَ الشَّهباءَ، ومرَّةً يَرْكَبُ الفرسَ عُرْياً، ومرَّةً يركَبُ النَّاقةَ، ومَرَّةً حماراً، ويُرْدِفُ عليه بعضَ أصحابه[2].

ومرةً يأكلُ التَّمْرَ دونَ خُبْزٍ، والخبزَ يابساً، ومرةً يأكُلُ العَنَاقَ المَشْوِيَّةَ[3]، والبطِّيخَ بالرُّطَبِ والحَلْواء. يأخُذُ القُوتَ، ويَبْذُلُ الفَضْلَ، ويترُكُ ما لا يحتاجُ إليه، ولا يَتَكلَّفُ فوقَ مقدارِ [37/ب] الحاجَةِ، ولا يَغْضَبُ لنَفْسِهِ، ولا يَدَعُ الغَضَبَ لربِّه ﷻ.

---

(1) **الحِبَرات**: جمع حِبَرة؛ بُردٌ يمانية، موشاةٌ مخطَّطة، تصنع من القطن.

(2) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ. رواه الترمذي (2516) وأحمد (1/ 293).

(3) **العَنَاقُ**: الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها سنةً.

اللجاج

• **الثَّباتُ** الذي هو صِحَّةُ العَقْدِ، **والثَّباتُ** الذي هو اللَّجاجُ[1]؛ مشتبهانِ اشتباهاً لا يُفَرِّقُ بينهما إلَّا عارِفٌ بكيفِيَّةِ الأخلاقِ.

والفرقُ بينهما أنَّ **اللَّجاجَ** هو: ما كانَ على الباطِلِ، أو ما فَعَلَهُ الفاعِلُ نَصْراً لِمَا نَشِبَ فيه، وقَدْ لاحَ له فسادُهُ، أو لم يَلُحْ لَهُ صَوَابُهُ ولا فسادُهُ، وهذا مَذْمُومٌ، وضدُّه: **الإنصافُ**.

الاضطراب

• وأمَّا **الثباتُ** الذي هو صحَّةُ العَقْدِ؛ فإنَّما يكونُ على الحقِّ، أو على ما اعتقدَهُ المرءُ حقّاً، ما لَمْ يَلُحْ له باطِلُهُ، وهذا محمودٌ، وضدُّه: **الاضطرابُ**، وإنَّما يلامُ بعضُ هذَيْن، لأنَّه ضَيَّعَ تدبُّرَ ما ثَبَتَ عليه، وتَرَكَ البحثَ عمَّا التزمَ، أحقٌّ هو أم باطلٌ؟!.

---

(1) **اللَّجاج**: الخصومةُ.

حدّ العقل

• **حَدُّ العقلِ**: استعمالُ الطَّاعاتِ والفضائل، وهذا الحَدُّ ينطوي فيه اجتنابُ المعاصي والرَّذائل، وقَدْ نصَّ اللهُ تعالى في غيرِ موضعٍ مِنْ كتابه على أنَّ مَنْ عصاه [38/أ] لا يَعْقِلُ؛ قالَ تعالى حاكياً عن قوم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، ثمَّ قالَ تعالى مُصدِّقاً لَهُم: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

حدّ الحمق

• **وحَدُّ الحُمْقِ**: استعمالُ المعاصي والرَّذائل.

وأمَّا التَّعدِّي، وقَذفُ الحجارَةِ، والتَّخْليطُ في القَوْلِ، فإنَّما هو جُنُونٌ، ومِرارٌ[1] هائِجٌ.

وأمَّا الحُمْقُ، فهو ضِدُّ العقلِ، وهُما مَا بَيَّنَّا آنفاً، ولا واسِطَةَ بَيْنَ الحُمْقِ والعَقْلِ إلَّا السُّخْفُ.

---

(1) **المرار**: جمع مِرَّة؛ فساد في المزاج.

حدّ السخف

● **وحَدُّ السُّخْفِ**: هو العملُ والقولُ بما لا يُحْتاجُ إليهِ في دينٍ ولا دُنْيا، ولا حَمِيدِ خُلُقٍ ممَّا ليس معصيةً ولا طاعةً، ولَا عوناً عليهما، ولا فضيلةً، ولا رذِيلةً مُؤْذِيَةً، ولكنَّه مِنْ هَذَرِ القَوْلِ، وفُضُولِ العملِ، فعلى قَدْرِ الاسْتِكْثَارِ مِنْ هذَيْن الأَمْرَيْن، أو التَّقَلُّلِ مِنْهُما يَسْتَحِقُّ المَرْءُ اسْمَ السُّخْف. وقَدْ يَسْخُفُ المَرْءُ في قِصَّةٍ، ويَعْقِلُ في أخرى، ويَحْمُقُ في ثَالِثَة.

النطق والجنون

● وضدُّ الجنونِ: تمْييزُ الأشياءِ، ووجودُ القُوَّةِ على التَّصَرُّفِ في المَعارِفِ والصِّناعاتِ، وهذا الَّذي يُسَمِّيْه الأوائِلُ **النُّطْقَ**، ولا واسِطَة بينهما.

الدهاء والغفلة

● وأمّا إحْكامُ أمْرِ الدُّنيا، والتَّوَدُّدُ إلى النَّاسِ بما وافَقَهُم، وصَلَحتْ عليه حالُ المُتَوَدِّدِ مِنْ باطلٍ أو غَيْرِهِ، أَوْ عَيْبٍ، أَو ما عَداهُ، والتَّحَيُّلُ في إنْماءِ المالِ، وبُعْدِ

الصَّوْتِ، وتَسْبيبِ الجاهِ بِكُلِّ ما أمكنَ مِنْ معصيةٍ ورذيلةٍ فليس عقلاً، ولقد كانَ الَّذينَ صَدَّقَهُمُ اللهُ تعالى في أنَّهم لا يَعْقِلونَ، وأخبرنا تعالى بأنَّهم لا يعقلونَ؛ سائِسينَ لدنياهم، مُثَمِّرينَ لأموالهم، مُدارِينَ لملوكِهم، حافِظينَ لرئاستهم، لكنَّ هذا الخُلُقَ يسمَّى: **الدَّهاءُ**، وضده **الغَفْلَةُ والسَّلامةُ**.

الحزم والتضييع

• وأما إذا كان السَّعيُ في ما ذكرنا تَصاوُناً وأَنَفَةً، فهو يُسمَّى **الحَزْمُ**، وضدُّه ـ المنافي له ـ **التَّضْيِيعُ**.

الوقار والرزانة

• وأمَّا **الوقارُ**، ووضعُ الكلام موضِعَهُ، والتَّوسُّطُ في تدبير المعيشةِ [39/أ] ومسايَرةُ النَّاسِ بالمسالمة، فهذه الأخلاقُ تسمّى **الرزانَة**، وهي ضدُّ **السُّخْفِ**.

حدّ الوفاء

• **الوفاءُ** مركَّبٌ من العَدْلِ، والجُودِ، والنَّجدةِ.

لأنَّ الوفِيَّ رأى مِنَ الجَوْرِ أَلَّا يقارِضَ مَنْ وَثِقَ به، أو مَنْ أَحْسَنَ إليه، فَعَدلَ في ذلكَ.

ورأى أنْ يَسْمَحَ بعاجلٍ ـ يَقْتضِيه له عدمُ الوفاءِ ـ مِنَ الحظِّ؛ فجادَ في ذلك.

ورأى أنْ يَتَجَلَّدَ لما يَتَوَقَّعُ مِنْ عاقبةِ الوفاءِ؛ فَشَجُعَ في ذلك.

أصول الفضائل وأصول الرذائل

• أصولُ الفضائل كلِّها أربعةٌ، عنها تتركَّبُ كلُّ فضيلةٍ، وهي: العدلُ، والفَهْمُ، والنَّجْدةُ، والجُودُ.

• وأصولُ الرَّذائِل كلِّها أربعةٌ، عنها تتركَّبُ كلُّ رذيلةٍ، وهي أضدادُ التي ذكرنا، وهي: الجَوْرُ، والجَهْلُ، والجُبْنُ، والشُّحُّ.

الأمانة والنزاهة

• **الأمانةُ والعِفَّةُ**: نوعانِ من أنواع العَدْلِ والجُودِ[1].

(1) جاء في (ش) مقطوعتان من الشعر، ستأتي في (ز) (ص187 ـ 189).

• **النَّزاهةُ في النَّفْسِ**: فضيلةٌ تتركَّبُ مِنَ النَّجْدةِ والجُودِ، وكذلك الصَّبْرُ.

• **الحِلْمُ**: نوعٌ مُفْرَدٌ من أنواع النَّجْدَةِ.

• **القناعةُ**: فضيلةٌ مركَّبةٌ [39/ب] من الجُودِ والعدلِ.

الحرص

• **الحِرْصُ**: متولِّدٌ عَنِ الطَّمعِ، والطَّمعُ متولِّدٌ عَنِ الحَسَدِ، والحَسَدُ متولِّدٌ عَنِ الرَّغْبةِ، والرَّغبةُ متولِّدةٌ عَنِ الجَوْرِ والشُّحِّ والجهلِ.

• وتتولَّدُ من الحِرْصِ رذائلُ عظيمةٌ، منها: الذُّلُّ، والسَّرِقَةُ، والغَصْبُ، والزِّنى، والقَتْلُ، والعِشْقُ، والهَمُّ بالفَقْرِ.

• والمَسْأَلةُ لما بأيدي النَّاسِ تتولّدُ فيما بين الحِرْصِ والطَّمعِ، [وإنّما فرّقنا بين الحرصِ والطمعِ][1] لأنَّ الحِرْصَ هو إظهارُ ما استكنَّ في النَّفْسِ من الطَّمَعِ.

• **المُداراةُ**: فضيلةٌ متركِّبَةٌ من الحِلْم والصَّبْرِ.

• **الصِّدقُ**: مركَّبٌ من العدل، والنَّجْدة.

---

(1) زيادة من (ش).

من جاء إليك بباطل
رجع من عندك بحق

• مَنْ جاءَ إليكَ بباطِلٍ؛ رجعَ من عندكَ بحقٍّ، وذلك أنَّ مَنْ نَقَلَ إليكَ كَذِباً عن إنسانٍ حرَّكَ طَبْعَكَ فأَجَبْتَهُ؛ فَرَجَعَ عنك بحقٍّ. فتحفَّظْ مِنْ هذا، ولا تُجِبْ إلَّا عَنْ كلامٍ صَحَّ عندكَ عَنْ قائِلِهِ.

لا شيء أقبح من الكذب

• لا شيءَ أقبَحُ مِنَ الكذبِ، وما ظَنُّكَ بعَيْبٍ يكونُ الكُفْرُ نوعاً مِنْ أنواعِهِ. فَكُلُّ كُفْرٍ كَذِبٌ، فالكَذِبُ [40/أ] جِنْسٌ؛ والكُفْرُ نوعٌ تَحْتَهُ.

• والكذبُ متولِّدٌ من الجَوْرِ، والجُبْنِ، والجهلِ، لأنَّ الجُبْنَ يولِّدُ مهانةَ النَّفسِ، والكذَّابُ مَهِينُ النَّفْسِ، بَعيدٌ من عزَّتِها المحمُودَةِ.

كلام الناس

• رأيتُ النَّاسَ في كلامِهِم ـ الذي هُوَ فَصْلٌ بينهم،

وبينَ الحَمِيرِ والكلابِ والحشراتِ ـ ينقسِمُونَ أقساماً ثلاثةً:

أحدُها: **مَنْ لا يُبالي فيما أنْفَقَ كلامَهُ**، فيتكلَّمُ بكلِّ ما يَسْبِقُ إلى لسانِهِ، غيْرَ مُحَقِّقٍ نَصْرَ حقٍّ، ولا إنكارَ باطلٍ، وهذا هو الأغلبُ في النَّاسِ.

والثّاني: **أَنْ يتكلَّم ناصراً لما وقعَ بنفسِه أنَّه حقٌّ**، ودافعاً لما توهَّمَ أنَّه باطلٌ، غيرَ مُحَقِّقٍ طلبَ الحقيقة، لكنْ لَجَاجاً فِيْمَا الْتَزَم، وهذا كثيرٌ، وهو دُوْنَ الأوَّلِ.

والثَّالث: **واضعُ الكلامِ في موضعِه**، وهذا أعزُّ مِنَ الكبريتِ الأحمرِ[1].

هم طويل

- لقد طالَ هَمُّ مَنْ غَاظَهُ الحقُّ.

الدنيا والحياء

- اثنانِ عَظُمَتْ راحتُهما؛ أحدُهما في غايةِ الحَمْدِ،

(1) **الكبريت الأحمر**: يضرب به المثل في الندرة.

والآخرُ [40/ب] في غايةِ الذَّمِّ، وهُما: مُطَّرِحُ الدُّنيا، ومُطَّرِحُ الحَياءِ.

التزهيد في الدنيا

• لَوْ لم يكنْ مِنَ التَّزْهيدِ في الدُّنيا إلَّا أنَّ كُلَّ إنسانٍ في العالَمِ؛ فإنَّه كُلَّ ليلةٍ إذا نامَ نَسِيَ كلَّ ما يُشْفِقُ عليه في يقظتِهِ، وكلَّ ما يُشْفِقُ منه، وكلَّ ما يَشْرَهُ إليه، فَتَجِدُهُ في تلكَ الحالِ لا يَذْكُرُ ولداً ولا أهلاً، ولا جاهاً ولا خُمُولاً، ولا وِلايةً ولا عزلةً، ولا فَقْراً ولا غنًى، ولا مُصِيبةً، وكفى بهذا واعظاً لمن عَقلَ.

الحاجة و الغنى

• مِنْ عَجِيبِ تدبير اللهِ ﷻ للعالَمِ؛ أنَّ كلَّ شيءٍ اشتدَّتِ الحاجةُ إليه كانَ ذلك أهونَ له، وتأمَّلْ ذلكَ في الماءِ فما فَوْقه، وكلَّ شيءٍ اشتدَّ الغِنى عنه كانَ ذلك أعزَّ لَهُ، وتأمَّلْ ذلكَ في الياقوتِ الأحْمَرِ، فما دُونَهُ[1].

(1) أي: ما كانت حاجةُ الناسِ إليه شديدةً كثرُ وجودُه، حتَّى صار مبذولاً لكلِّ ذي حاجةٍ كالماء، وما لا حاجةَ للنَّاسِ إليه، وليس من

الحاجات لا تنقضي

• النَّاسُ في ما يعانُونَهُ كالماشي في الفَلا[1]، كلَّما قَطَعَ أرضاً بَدَتْ له أَرَضُونَ، وكلَّما قضَى المَرْءُ سبباً حَدَثَتْ له أسبابٌ.

العاقل معذب من وجه، مستريح من وجه آخر

• صَدَقَ مَنْ قالَ: إِنَّ [41/أ] العاقِلَ مُعذَّبٌ في الدُّنيا وصَدَقَ مَنْ قالَ: إِنَّه فيها مُسْتَرِيحٌ.

فأمَّا تعذِيبُهُ فبما يرى مِن انتشار الباطلِ، وغَلَبَةِ دُوَلِهِ، وبما يُحالُ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ مِنْ إظهارِ الحقِّ.

وأمَّا راحَتُهُ فَمِنْ كُلِّ ما يهتَمُّ به سائِرُ النَّاسِ من فُضُولِ الدُّنيا.

ضرورات حياتهم قلّ وجودُه، وحَرِصَ عليه أهلُ الترف، فتنافسوا فيه، حتَّى غلا ثمنه كالياقوت الأحمر وغيره من الأحجار الكريمة.

(1) **الفلا**: الأرض القفر، والصحراء الواسعة.

موافقة الجليس ومخالفته

• إِيَّاكَ وموافقةَ الجليسِ، ومساعدةَ أهلِ زَمَانِكَ فيما يضرُّكَ في أُخْراكَ، أو في دُنْياكَ، وإنْ قلَّ، فإنَّكَ لا تَسْتَفِيْدُ بذلكَ إلَّا النَّدامةَ، حَيْثُ لا يَنْفَعُكَ النَّدَمُ، ولنْ يَحْمَدَكَ مَنْ ساعدتَهُ، بل يَشْمَتُ. وأقلُّ ما في ذلك ـ وهو المَضْمُونُ ـ أنَّه لا يُبالي بسوءِ عاقِبَتِكَ، وفسادِ مَغَبَّتِكَ.

• وإيَّاك ومخالفةَ الجليسِ، ومعارضةَ أهلِ زَمانِكَ فيما لا يَضُرُّكَ في دنياك، ولا في أُخْراكَ، وإنْ قَلَّ، فإنَّك تَسْتَفِيْدُ بذلكَ الأذى والمُنافرةَ والعداوةَ، وربَّما أدَّى ذلك إلى المطالبةِ والضَّرَرِ العظيم، دونَ منفعةٍ أصلاً.

لا تُغْضِبْ ربك

• إنْ لَمْ [41/ب] يكنْ بُدٌّ مِنْ إغضابِ النَّاسِ أو إغضابِ اللهِ ﷻ، ولم تَكُنْ مَنْدُوحَة عَنْ منافرةِ الحَقِّ، أو منافرةِ الخَلْقِ؛ فأَغْضِبِ النَّاس ونافِرْهم، ولا تُغْضِبْ ربَّك، ولا تُنافِرِ الحَقَّ.

الاتّساء بالنبي ﷺ في الوعظ

• الاتِّساءُ بالنَّبيِّ ﷺ فِيْ وَعْظِ أهلِ الجَهْلِ، والمعاصي، والرَّذائِلِ؛ واجبٌ.

فَمَنْ وَعَظَ بالجفاءِ والاكْفِهْرارِ؛ فقد أخطأَ، وتعدَّى طريقَتَهُ، وصارَ في أكثرِ الأمرِ مُغْرِياً للموعوظِ بالتَّمادي على أمره؛ لَجاجاً، وحَرَداً[1]، ومغايَظَةً للواعظ الجافي، فيكونُ في وعظِهِ مُسِيئاً لا مُحْسِناً.

ومن وعظَ ببِشْرٍ، وتبسُّمٍ، ولينٍ، وكأنَّه مُشِيرٌ برأيٍ، ومُخْبِرٌ عن غيرِ المَوْعُوظِ بما يُسْتَقْبَحُ من الموعوظِ، فذلك أبلغُ وأنْجعُ في الموعظةِ.

فإنْ لم يتقبَّلْ، فلْيَنْتَقِلْ إلى المَوْعِظَةِ بالتَّحْشِيمِ[2]، وفي الخلاءِ[3].

فإنْ لَمْ يَقْبَلْ ففي حَضْرةِ مَنْ يَسْتحيي منه المَوْعُوظُ.

فهذا أدبُ اللهِ تعالى في أمرِهِ [42/أ] بالقولِ اللَّيِّنِ،

---

(1) **حرداً**: غضباً.

(2) **التحشيم**: الحياء.

(3) **الخلاء**: الخلوة.

وكانَ ﷺ لا يُوَاجِهُ بالمَوْعِظَةِ، لكنْ كانَ يَقُولُ: «**ما بالُ أقوامٍ يَفْعَلُونَ كذا**».

وقد أثنى ﷺ على الرِّفْقِ[1]، وأَمَرَ بالتَّيْسِيرِ، ونهى عن التَّنْفِيرِ[2]، وكانَ يتخوَّلُ بالمَوْعِظَةِ خوفَ المَلَلِ[3]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: 159].

● وأمّا الغِلْظَةُ والشِّدَّةُ؛ فإنَّما تجبُ في حدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تعالى، فلا لِينَ في ذلكَ للقادرِ على إقامةِ الحَدِّ خاصَّةً.

---

(1) انظر حديث عائشة رضي الله عنها في سنن أبي داود رقم (4788). وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفقَ في الأمرِ كُلِّهِ**» رواه البخاري (6024).

(2) قال رسول الله ﷺ: «**يَسِّروا ولا تعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنَفِّروا**» رواه البخاري (6125) ومسلم (2821).

(3) عن عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة في الأيَّامِ كراهةَ السَّآمةِ علينا. أخرجه البخاري ومسلم. **ويتخوَّلُ**: أي: يتعَهَّدُ، والمعنى: أنه كان يراعي الأوقاتِ في التذكيرِ والموعظةِ، فلا يفعلُ ذلك كلَّ يومٍ لئَلَّا يملُّوا.

مما ينجع في الوعظ

• وممّا يَنْجَعُ في الوعظ أيضاً الثناءُ بِحَضْرَةِ المسيءِ على مَنْ فَعَلَ خلافَ فِعْلِهِ، فهذا داعيةٌ إلى عَمَلِ الخَيْرِ. وما أَعْلَمُ لِحُبِّ المدحِ فضلاً إلَّا هذا وَحْدَهُ، وهو أنْ يَقْتديَ بِهِ مَنْ يَسْمعُ الثَّناءَ، ولهذا يجبُ أنْ تُؤَرَّخَ[1] الفضائلُ والرَّذائلُ لِيَنْفِرَ سامعُها عن القبيحِ المأثورِ عَنْ غيرِهِ، ويَرْغَبَ في الحَسَنِ المنقولِ عَمَّنْ تقدَّمه، ويتَّعظَ بما سَلَفَ. [42/ب].

كل شيء يريدُ الآخرَ أن يتمثّل صفاته

• تأمَّلتُ كلَّ ما دُوْنَ السماءِ، وطالتْ فيه فِكْرتي، فوجدتُ كُلَّ شيءٍ فيه، مِنْ حيٍّ وغيرِ حيٍّ، من طَبْعِهِ إنْ قَوِيَ، أنْ يخلَعَ [على][2] غيرِهِ من الأنواع كيفيَّاتِهِ، ويُلْبِسَهُ صِفاتِهِ؛ فترى الفاضلَ يودُّ لو كانَ النَّاسُ فُضَلاءَ، وترى النَّاقِصَ يودُّ لو كانَ النَّاسُ نُقَصاءَ، وترى كُلَّ مَنْ

(1) **تؤرّخ**: المقصود أن تدوّن بالتفصيل لِيُعتبر بها.

(2) زيادة من الطبعة الجمالية.

ذكرَ شيئاً ـ يَحُضُّ عليه ـ يقولُ: وأنا أفعلُ أمر كذا وكذا، وكلَّ ذي مذهبٍ يودُّ لو كانَ النَّاسُ موافِقينَ له.

وترى ذلك في العناصر إذا قويَ بعضُها على بعضٍ أحالَهُ إلى نوعيَّتِهِ، وترى ذلك في تركيبِ الشَّجَرِ، وفي تغذِّي النباتِ والشَّجرِ بالماءِ، ورُطوبةِ الأرضِ وإحالتهما ذلك إلى نوعيَّتهما، فسبحانَ مُخْتَرِعِ ذلكَ ومدبِّرِهِ، لا إلٰهَ إلَّا هُوَ!.

لكلّ صورةٍ فَرْقُها

● مِنْ عجيبِ قُدْرةِ اللهِ تعالى كَثْرَةُ الخَلْقِ، ثُمَّ لا ترى أحداً يُشْبِهُ آخرَ شَبَهاً لا يكون بينَهما فرْقٌ. وقد سألتُ مَنْ طالَ عُمُرُهُ، وبلغَ [43/أ] الثَّمانينَ عاماً، هل رأى الصُّورَ فيما خلَا مُشْبِهَةً لهذه شَبَهاً واحداً؟ فقالَ لي: لا، بل لِكُلِّ صورةٍ فَرْقُها. وهكذا كلُّ ما في العالَم، يعرفُ ذلك مَنْ تدبَّرَ الآلاتِ، وجميعَ الأجسامِ المركّباتِ، وطالَ تكرُّرُ بصرِهِ عليها، فإنَّه ـ حينَئِذٍ ـ يُمَيِّزُ ما بَيْنَها، ويَعْرِفُ بعضَها من بعضٍ بفروقٍ فيها، تَعْرِفُها النَّفْسُ، ولا يَقْدِرُ

أحدٌ [أن][1] يُعَبِّرَ عنها بلسانِهِ، فسبحانَ القديرِ الحكيم؛ الَّذي لا تتناهى مَقْدُوراتُهُ!.

آمال فاسدة لا يحصّل أصحابها إلا الهمَّ والإثم

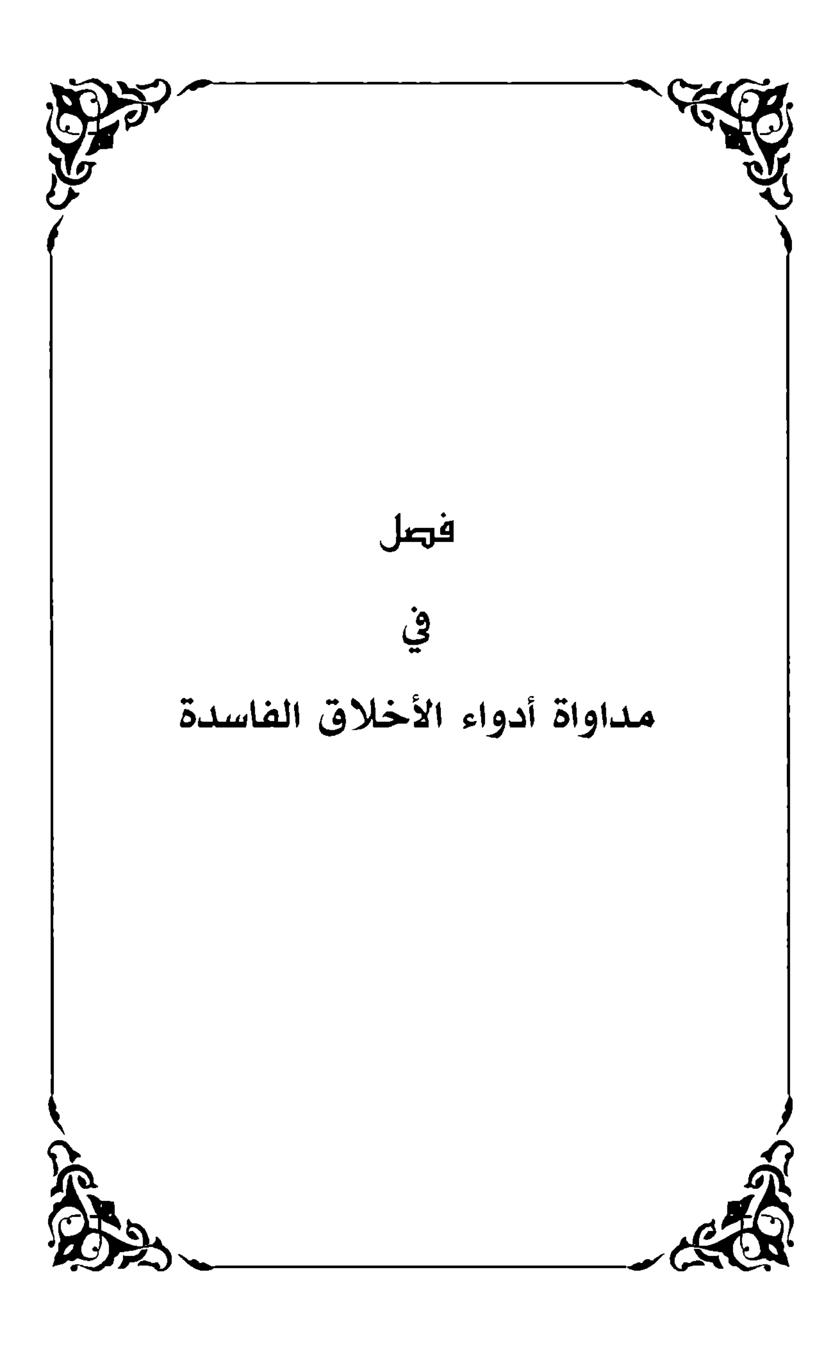
• من عجائبِ الدُّنيا قومٌ غلبتْ عليهم آمالٌ فاسدةٌ لا يُحَصِّلوُنَ منها إلَّا على إتعابِ النَّفْسِ عاجلاً، ثُمَّ الهمِّ والإثم آجلاً، كمنْ يتمنَّى غلاءَ الأقواتِ الَّتي في غلائها هلَاكُ النَّاس، وكمنْ يتمنَّى بعضَ الأمورِ الَّتي فيها الضَّرَرُ لغيره، وإنْ كانتْ لَهُ فيها مَنْفَعَةٌ؛ فإنَّ تأمِيلَهُ ما يُؤَمِّلُ من ذلكَ لا يُعَجِّلُ له ذلكَ قبل وقتِهِ، ولا يأتِيه من ذلكَ بما ليسَ في علمِ اللهِ [43/ب] تعالى تَكوُّنُهُ، فلو تمنَّى الخيرَ والرَّخاءَ لتعجَّلَ الأجرَ والرَّاحةَ والفضيلةَ، ولم يُتْعِبْ نفسَهُ طرفةَ عينٍ فما فوقها.

فاعْجَبُوا لفسادِ هذه الأخلاقِ بلا مَنْفَعةٍ!.



---

(1) زيادة يقتضيها السياق.



فصل

في

مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة

العاقل من ميّز عيوب نفسه فغالبها

● مَنِ امتُحِنَ بالعُجْبِ فليفكِّرْ في عُيُوبه؛ فإنْ أُعْجِبَ بفضائلِهِ فليفتِّشْ ما فيه من الأخلاقِ الدَّنِيَّةِ، فإنْ خَفِيَتْ عليه عيوبُه جملةً حتَّى يظنَّ أنَّه لا عَيْبَ فيه؛ فليعلمْ أنَّها مصيبةُ الأبدِ، وأنَّه أتمُّ النَّاسِ نقصاً، وأعظمُهم عيوباً، وأضعفُهم تمييزاً، وأوَّلُ ذلك؛ أنَّه ضعيفُ العقلِ، جاهلٌ، ولا عيبَ أشدُّ من هذَيْنِ، لأنَّ العاقلَ هو مَنْ ميَّز عيوبَ نفسِهِ فغالَبَها، وسعى في قَمْعِها، والأحمقَ هو الذي يَجْهلُ عيوبَ نفسِهِ، إمَّا لقلةِ عِلْمِهِ وتَمْييزه، وضعفِ فِكْرتِهِ، وإمَّا لأنَّه يُقَدِّرُ أنَّ عيوبَهُ خِصالٌ[1]، وهذا أشدُّ عيبٍ في الأرضِ. [44/أ].

التعجب ممن يفخر بالمعاصي

● وفي النَّاس كثيرٌ يَفْخرون بالزِّنى، واللِّياطةِ[2]، والسَّرقةِ، والظُّلمِ، فيُعْجَبُ بتأتِّي هذه النُّحوسِ له، وبقوَّته على هذه المخازي.

---

(1) **خصال**: فضائل.

(2) اللواطة.

من خفيت عليه عيوبه فقد سقط

• واعْلَمْ يقيناً أنّه لا يَسْلَمُ إنْسِيٌّ من نقصٍ حاشا الأنبياء صلواتُ الله عليهم، فمنْ خفِيَتْ عليه عيوبُ نفسِهِ فقد سقَطَ، وصارَ من السُّخْفِ، والضَّعَةِ، والرَّذالةِ، والخِسَّةِ، وضَعْفِ التَّمْييز والعقلِ، وقِلَّةِ الفَهْم؛ بحيثُ لا يتخلَّفُ عنه متخلِّفٌ من الأرَاذِلِ، وبحيثُ ليس تَحْتَهُ منزلةٌ من الدَّناءةِ، فليتدارَكْ نفسَه بالبحثِ عَنْ عُيُوبِهِ، والاشتغالِ بذلِكَ من الإعجابِ بها، وعَنْ عيوبِ غَيْرِه الَّتي لا تَضُرُّهُ لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة.

فائدة سماع عيوب الناس

• وما أدري لسماع عيوبِ النَّاس خَصْلةً سوى الاتِّعاظ بما يَسْمَعُ المرءُ منها، فَيْجتنِبها، ويَسْعى في إزالة ما فيه منها، بحولِ الله تعالى وقوَّته.

ذكر العيوب لا يجوز
إلا على وجه النصيحة

• وأمَّا النُّطْقُ بعيوبِ النَّاسِ؛ فعيبٌ كبيرٌ، لا يسوغُ

أصلاً، والواجبُ اجتنابُهُ، إلَّا في نصيحةِ [44/ب] مَنْ يُتَوَقَّعُ عليه الأذى بمداخلةِ المَعِيبِ، أو على سبيلِ تَبْكِيتِ[1] المُعْجَبِ ـ فقط ـ في وَجْهِهِ، لا خَلْفَ ظَهْرِهِ.

علاج العجب

● ثمَّ يقولُ للمُعجَبِ: ارْجِعْ إلى نفسِكَ، فإذا مَيَّزْتَ عيوبَها؛ فَقَدْ داوَيْتَ عُجْبَكَ.

لا تكن مقلِّداً لأهل الشرِّ

● ولا تُمَثِّلْ بين نفسِكَ وبينَ مَنْ هو أكثرُ عيوباً منها؛ فَتَسْتَسْهِلَ الرَّذائِلَ، وتكونَ مقلِّداً لأهلِ الشَّرِّ، وقد ذُمَّ تقليدُ أهلِ الخيرِ[2]، فكَيْفَ تقليدُ أهلِ الشّرِّ، لكن مَثِّلْ بين نفسِكَ وبين مَنْ هو أفضلُ منكَ، فحِينَئِذٍ يَتْلَفُ عُجْبُكَ، وتفيقُ مِنْ هذا الدَّاءِ القبيحِ، الذي يولِّدُ عليكَ الاستخفافَ بالنَّاسِ، وفيهم ـ بلا شك ـ مَنْ هُوَ خَيْرٌ منكَ، فإذا استَخْفَفْتَ بهم بغيرِ حقٍّ استخفُّوا بكَ بحقٍّ، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، فتولِّدُ على

---

(1) **التبكيت**: التقريع والتعنيف.

(2) كأن ابن حزم يقصد التقليد المذهبي، وإلا فالتَّشَبُّه بالكرامِ فلاحُ.

نفسِكَ أن تكونَ أهلاً للاسْتِخْفافِ بكَ على الحقيقةِ؛ مع مَقْتِ اللهِ ﷻ، وطَمْسِ ما فِيكَ من فضيلةٍ.

إن أُعجبت بعقلك

• فإنْ **أُعْجِبْتَ بعقلك**؛ ففكِّرْ في كُلِّ فكرةِ سوءٍ تَمُرُّ بخاطرِكَ [45/أ]، وفي أضاليلِ الأماني الطَّائِفَةِ بكَ، فإنَّك تَعْلَمُ نَقْصَ عقلِكَ حِينَئِذٍ.

إن أُعجبتَ بآرائك

• وإنْ **أُعْجِبْتَ بآرائِكَ**؛ فتفكَّرْ في سَقَطاتِكَ، واحْفَظْها، ولا تَنْسَها، وفي كلِّ رأيٍ قدَّرْتَهُ صواباً فخرجَ بخلافِ تَقْدِيرِكَ، وأصابَ غيرُكَ، وأخطأتَ أنتَ، فإنَّكَ إنْ فعلتَ ذلكَ؛ فأقلُّ أحوالِكَ أنْ تُوازِنَ سُقُوطَ رأيِكَ بصوابِهِ، فتخرُجَ لا لكَ ولا عليكَ، والأغلبُ أنَّ خطأَكَ أكثرُ مِنْ صوابِكَ، وهكذا كلُّ أحدٍ من النَّاسِ بعد النَّبِيِّينَ صلواتُ الله عليهم.

إن أُعجبتَ بعملك

• وإنْ **أُعجبتَ بعَمَلِك**؛ فتفكَّرْ في معاصيكَ، وفي

تقصيرِكَ، وفي معاشِكَ، ووجُوهِهِ، فواللهِ لتجدَنَّ مِنْ ذلكَ ما يَغْلِبُ على خَيْرِكَ، ويُعَفِّي على حسناتِكَ، فيطولُ همُّكَ حينئذٍ، وأَبْدِلْ مِنَ العُجْبِ تَنَقُّصاً لنفسِكَ.

إن أعجبتَ بعلمك

● وإنْ **أُعجِبْتَ بِعِلْمِكَ**؛ فاعلمْ أنَّه لا خَصْلَةَ[1] لك فيه، وأنَّه مَوْهِبَةٌ مجرَّدَةٌ وهبَك إيَّاها ربُّكَ تعالى، فلا تُقَابِلْها بما يُسْخِطُهُ، فلعلَّهُ يُنْسِيكَ [45/ب] ذلك بعِلَّةٍ يَمْتَحِنُكَ بها، تولِّدُ عليكَ نِسْيانَ ما قد علمتَ وحَفِظْتَ.

● ولقد أخبرني عبدُ الملكِ بنُ طَرِيفٍ[2] ـ وهو مِنْ أهلِ العِلْمِ والذَّكاءِ، واعْتِدالِ الأحوالِ، وصِحّةِ البحثِ ـ أنَّه كانَ ذا حظٍّ من الحِفظِ عظيم، لا يكادُ يمُرُّ على سمعِهِ شيءٌ يحتاجُ إلى اسْتِعادَتِهِ، وأنَّه رَكِبَ البحرَ، فمرَّ بهِ فيه هَوْلٌ شديدٌ أنساهُ أكثرَ ما كانَ يَحْفَظُ، وأخلَّ بقوةِ حِفْظِهِ إخلالاً شديداً، ولم يُعاوِدْهُ ذلك الذَّكاء بَعْدُ.

---

(1) **خصلة**: فضل.

(2) هو أبو مروان عبد الملك بن طريف، من أهل قرطبة، وكان لغويّاً نحويّاً، أخذ عن ابن القوطيّة، وألّف كتاباً حسناً في الأفعال، وتوفي في قرابة سنة 400هـ (الصلة: 340).

• وأنا أصابَتْنِي عِلَّةٌ فأَفَقْتُ منها؛ وقد ذَهَبَ ما كنتُ أحفظُ إلَّا ما لا قَدْرَ له، فما عاوَدْتُهُ إلَّا بعدَ أعوامٍ.

العلم موهبة من الله تعالى

• واعلم أنَّ كثيراً من أهلِ الحِرْصِ على العِلْم يَجِدُّونَ في القراءةِ، والإكباب على الدَّرسِ والطَّلَبِ، ثمَّ لا يُرْزَقونَ منه حظّاً، فلْيَعْلَمْ ذو العلم أنَّه لو كانَ بالإكْبابِ وحدَه لكانَ غيرُه فوقَهُ، فصَحَّ أنَّه مَوْهِبَةٌ من الله تعالى، فأيُّ مكانٍ للعُجْبِ هاهُنا؟! ما هذا إلَّا موضعُ تواضُعٍ، وشُكْرٍ لله تعالى، [46/أ] واسْتِزادةٍ من نِعَمِهِ، واستعـاذَةٍ من سَلْبِها.

تفكر فيمن كان أعلمَ منك

• ثُمَّ تفكَّر أيضاً في أنَّ ما خَفِيَ عنك، وجَهِلْتَهُ من أنواعِ العلوم، ثُمَّ مِنَ أصنافِ عِلْمِكَ الذي تَخْتَصُّ بهِ، والذي أُعْجِبْتَ بنفاذِكَ فيه؛ أكثرُ مِمَّا تَعْلَمُ مِنْ ذلكَ، فاجعلْ مكانَ العُجْبِ استِنْقاصاً لنفسِكَ، واسْتِقْصاراً لها، فهو أولى، فتفكَّرْ في مَنْ كانَ أعلمَ منكَ، تَجِدُهُمْ كثيراً، فلتَهُنْ نفسُكَ عندكَ حينَئِذٍ[1].

---

(1) ومن هذا الباب قول القائل: كلّما ازددتُ علماً ازددتُ علماً بجهلي.

العمل بالعلم

• وتفكَّر في إخْلالِكَ بِعِلْمِكَ، وأنَّكَ لا تَعْمَلُ بِمَا عَلِمْتَ منه؛ فلعِلْمُكَ عليكَ حُجَّةٌ حينئذٍ، ولقد كان أسلمَ لكَ لو لَمْ تكُنْ عالماً.

الجاهل الذي لم يتعلّم

واعلمْ أنَّ الجاهلَ ـ حينئذٍ ـ أعقلُ منكَ، وأسلمُ حالاً، وأعذرُ، فلْيَسْقُطْ عُجْبُكَ بالكلِّيةِ.

أين علمك من علوم الآخرين؟!

• ثُمَّ لعلَّ عِلْمَكَ الذي تَعْجَبُ بنفاذِكَ فيه من العلومِ المُتَأَخِّرةِ التي لا كبيرَ خَصْلَةٍ فيها، كالشِّعْرِ، وما جرى مجراه، فانظُرْ ـ حينَئِذٍ ـ إلى مَنْ عِلْمُهُ أجلُّ من عِلْمِكَ في مراتب الدُّنيا والآخرة، فتَهُونُ نَفْسُكَ عليكَ.

إن أُعجبتَ بشجاعتك

• وإنْ **أُعجبتَ بشجاعتك**؛ فتفكَّرْ فِيْمَنْ هو أشْجَعُ منكَ، ثُمَّ انْظُرْ [46/ب] في تلك النَّجْدَةِ التي مَنَحكَ اللهُ تعالى فيمَ صَرَفْتَها، فإنْ كنتَ صَرفتَها في معصيةٍ؛ فأنتَ

أحمقُ، لأنَّكَ بذلتَ نفسَكَ فيما ليسَ بثَمَنٍ لها، وإنْ كنتَ صرفتَها في طاعةٍ؛ فقد أفْسَدْتَها بعُجْبِكَ، ثُمَّ تفكَّر في زوالها عنك بالشَّيَخِ[1]، وأنَّكَ إنْ عشتَ فستَصِيرُ في عَدَدِ العيالِ، وكالصَّبِيِّ ضُعْفاً.

على أنِّي ما رأيتُ العُجْبَ في طائفةٍ أقلَّ منه في أهلِ الشَّجاعةِ، فاسْتَدْلَلْتُ بذلك على نزاهةِ أنْفُسِهم، ورِفْعَتِها، وعُلُوِّها.

إن أُعجبتَ بجاهك وسلطانك

● وإن **أعجبتَ بجاهِكَ في دنياك**؛ فتفكَّرْ في مُخالِفيكَ، وأنْدادِكَ، ونُظَرائِكَ، ولعلَّهُم أَخِسَّاءُ وُضَعاءُ سُقَّاطٌ، فاعلَمْ أنَّهم أمثالُكَ فيما أنتَ فيهِ، ولعلَّهم ممَّن يُسْتَحْيا من التَّشَبُّهِ بهم، لفرطِ رَذالَتِهم، وخَسَاسَتِهم في أنْفُسِهم وأَخْلاقِهم ومَنَابِتهم، فاسْتَهِنْ بكلِّ منزلةٍ شارَكَكَ فيها مَنْ ذكرتُ لكَ.

● وإنْ **كنتَ مالِكَ الأرضِ** كلِّها، ولا مخالِفَ عليك، وهذا بَعِيدٌ جدّاً في الإمكانِ، فما نعلَمُ أحداً مَلَكَ مَعْمُورَ

---

(1) **بالشيخ**: الشيخوخة والهرم.

الأرضِ[1] كلَّه على قِلَّتِهِ [47/أ]، وضيقِ مساحته؛ بالإضافةِ إلى غامِرِها، فكيفَ إذا أُضِيفَ إلى الفَلَكِ المُحِيط. فتفكَّر فيما قالَ ابنُ السَّمَّاكِ[2] للرَّشِيدِ[3] ـ وقد دعا بِحَضْرَتِهِ بقَدَحٍ فيه ماءٌ ليشربَهُ ـ فقالَ لَهُ: يا أَمِيرَ المؤمنينَ! فَلَوْ مُنِعْتَ هذه الشُّرْبَةَ؛ بكَمْ كنتَ ترضَى أنْ تَبْتاعَها؟!.

فقالَ له الرَّشِيدُ: بِمُلْكي كلِّه.

قالَ لَهُ: يا أَميرَ المُؤمِنينَ! فلو مُنِعْتَ خُرُوجَها منكَ بِكَمْ [كُنْتَ][4] تَرْضى تَفتدي من ذلك؟!.

قال: بِمُلْكِي كلِّه.

قالَ: يا أَميرَ المُؤْمنينَ! أتَغْتَبِطُ بِمُلْكٍ لا يُساوي بَوْلةً، ولا شُرْبَةَ ماءٍ[5]؟! وصَدَقَ ابنُ السَّمَّاكِ رحمه الله.

---

(1) المعمور من الأرض المسكون، والغامر غير المسكون.

(2) هو محمد بن صبيح مولى بني عجل، كوفي، قدم بغداد زمن الرشيد، وكان يعظه، وبعد إقامته مدة ببغداد عاد إلى الكوفة، وتوفي بها سنة 183هـ.

(3) هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور (149 ـ 193هـ) خامس الخلفاء العبّاسيين وأشهرهم.

(4) زيادة من (ش).

(5) انظر: العقد الفريد (3/ 164).

● وإنْ **كنتَ مَلِكَ المسلمينَ** كلِّهم، فاعلمْ أنَّ مَلِكَ السُّودانِ ـ وَهُوَ أَسْوَدُ، رَذِلٌ، مَكْشُوفُ العَوْرةِ، جاهِلٌ ـ يَمْلِكُ أوسعَ من مُلْكِكَ.

وإنْ قلتَ: أنا أخذتُهُ بحقٍّ، فلَعَمْري ما أخَذْتَهُ بحقٍّ؛ إذ استعملتَ فيه رذيلةَ العُجْبِ؟! وإذا لم تَعْدلْ فيه فاسْتَحْيِ مِنْ حالِكَ، فهي حالةُ رَذالةٍ، لا حالةٌ يَجِبُ العُجْبُ بها.

إن أُعجبتَ بمالك

● وإنْ **أُعجِبتَ بمالك**؛ فهذه أَسْوَأُ مراتِبِ العُجْبِ، فانْظُرْ [47/ب] في كلِّ ساقطٍ خَسِيسٍ؛ هو أغنى منك، فلا تَغْتَبِطْ بحالةٍ يَفُوقُكَ فيها مَنْ ذَكَرْتُ.

واعلمْ أنَّ عُجْبَكَ بالمالِ حُمْقٌ، **لأنَّه أحجارٌ لا تَنْتَفِعُ بها إلَّا بأنْ تُخْرِجَها عن مُلْكِكَ بنفقَتِها في وَجْهِهَا فَقَطْ.**

والمالُ أيضاً غادٍ ورائِحٌ، وربَّما زالَ عنك، ورأيْتَهُ بعَيْنِه في يدِ غيركَ، ولعلَّ ذلكَ يكونُ في يدِ عدوِّكَ، فالعُجْبُ بمِثْلِ هذا سُخْفٌ، والثِّقةُ به غرورٌ وضَعْفٌ.

إن أُعجبتَ بحُسنك

• وإنْ **أُعجبتَ بحُسْنِكَ**؛ ففكَّرْ في ما يُولِّدُ عليكَ مِمَّا نَسْتَحيي نحنُ مِنْ إثباتِه، وتَسْتحيي أنتَ مِنْهُ إذا ذَهَبَ عنك بدخُولِكَ في السِّنِّ، وفيما ذكرنا كفايةٌ.

إن أعجبتَ بمدح إخوانك لك

• وإنْ **أُعجبتَ بمَدْحِ إخوانكَ لكَ**؛ ففكِّرْ في ذمِّ أعدائِكَ إيَّاكَ، فَحِينَئِذٍ يَنْجَلي عنكَ العُجْبُ، فإنْ لم يَكُنْ لكَ عدوٌّ فلا خَيْرَ فيك، **ولا منزلةَ أسقطُ مِنْ منزلةِ مَنْ لا عدُوَّ له**، فليستْ إلَّا منزلةَ مَنْ ليسَ للهِ تعالى عِنْدَهُ نِعْمَةٌ يُحْسَدُ عليها، عافانا اللهُ.

إن استحقرتَ عيوبك

• فإن **استحقرتَ عيوبَكَ**، ففكَّرْ فيها [48/أ] لو ظهرتْ إلى النَّاسِ، وتَمَثَّلْ اطِّلاعَهُمْ عليها، فحِينَئِذٍ تَخْجَلُ، وتَعْرِفُ قَدْرَ نَقْصِكَ؛ إنْ كانتْ لك مُسْكَةٌ[1] من تَمْيِيزٍ.

---

(1) **مسكة**: بقية.

فضائلك منح من الله تعالى

• واعلَمْ بأنَّك إنْ تعلَّمْتَ كيفيةَ تركيبِ الطَّبائِع، وتولُّدِ الأخلاقِ، مِنِ امتزاجِ عناصرِها المَحْمُولةِ في النَّفسِ، فستَقِفُ مِنْ ذلك ـ وقوفَ يقينٍ ـ على أنَّ فَضَائِلَكَ لا خَصْلَةَ[1] [لك][2] فيها، وأنَّها مِنَحٌ مِنَ اللهِ تعالى، لو مَنَحها غَيْرَكَ لكانَ مِثْلَكَ، وأنَّكَ لو وُكِلْتَ إلى نفسِكَ؛ لعَجَزْتَ وَهلَكْتَ.

فاجْعَلْ بَدَلَ عُجْبِكَ بها حَمْداً للواهب لك إيَّاها، وإشْفاقاً مِنْ زَوالِها، فقد تتغَيَّرُ الأخلاقُ الحميدةُ بالمَرَضِ، وبالفَقْرِ، وبالخَوْفِ، وبالغَضَبِ، وبالهَرَمِ.

وارحَمْ مَنْ مُنِعَ ما مُنِحْتَ، ولا تتعرَّضْ لزوالِ ما بِكَ من النِّعَمِ بالتَّعاطي[3] على واهبها تعالى، وبأنْ

---

(1) **خصلة**: فضل.

(2) زيادة يقتضيها السياق.

(3) **التعاطي**: الجرأة، وتناول ما لا يحقُّ ولا يجوز تناوله.

تَجْعلَ لنفسِكَ فيما وَهَبَ خَصْلَةً، أو حقّاً، فتقدِّرَ أنَّكَ استغنيتَ عن عِصْمَتِهِ، فتَهْلِكَ عاجلاً وآجلاً.

مرض ابن حزم وأثره على مزاجه

• ولقد أصابَتْني عِلَّةٌ شديدةٌ، ولَّدَتْ عليَّ رَبْواً في الطِّحالِ [48/ب] شديداً، فولَّدَ ذلكَ عليَّ مِنَ الضَّجَرِ، وضِيقِ الخُلُقِ، وقِلَّةِ الصَّبْرِ، والنَّزَقِ؛ أمراً حاسَبْتُ نفسي فيه، إذ أنكرتُ تبدُّلَ خُلُقي، واشْتَدَّ عَجَبي مِنْ مفارَقَتي لِطَبْعي، وصَحَّ عندي أنَّ الطِّحالَ موضِعُ الفَرَحِ؛ فإذا فَسَدَ تولَّدَ ضِدُّه.

إن أُعجبت بنسبك

• وإنْ **أُعجبتَ بنَسَبِكَ**؛ فهذه أَسْوَأُ مِنْ كلِّ ما ذكرنا، لأنَّ هذا الذي أُعجبتَ به لا فائدةَ له أصلاً في دُنْيا ولا آخرة.

وانْظُرْ هل يَدْفَعُ عنك جَوْعَةً، أو يَسْتُرُ لكَ عورةً، أَو يَنْفَعُكَ في آخرتك.

ثُمَّ انظر إلى مَنْ يُسَاهِمُكَ[1] في نَسَبِكَ، وربَّما فيما هو أعلى منه، مِمَّنْ نالَتْهُ ولادةُ الأنبياءِ ﷺ، ثُمَّ ولادةُ الخُلفاءِ، ثُمَّ ولادةُ الفُضلاءِ مِنَ الصَّحابةِ والعُلَماءِ، ثُمَّ ولادةُ مُلُوكِ العَجَم مِنَ الأَكاسِرَةِ والقَيَاصِرةِ، ثُمَّ ولادةُ التَّبابِعَةِ[2]، وسائِرِ ملوكِ الإسلامِ، فتأمَّلْ غُبراتِهم[3]، ومَنْ يُدْلي بمِثْلِ ما تُدْلِي بهِ من ذلك؛ تَجِدْ أكثرَهُمْ أمثالَ الكِلابِ خساسةً، وتَلْقَهُم في غايةِ السُّقوطِ والرَّذالةِ والتَّبذُّلِ، والتَّحلِّي بالصِّفاتِ المَذْمُومَةِ، فلا تَغْتَبِطْ [49/أ] بمنزلةٍ هُم فيها نُظَراؤُكَ أو فَوْقَكَ.

ثُمَّ لعلّ الآباءَ الذينَ تَفْخَرُ بهم كانُوا فُسَّاقاً، وَشَرَبَةَ خُمُورٍ، ولاطَةً، ومُتَعَبِّثِينَ، ونَوْكى[4]؛ أطلقَتِ الأيامُ أيْدِيهم بالظُّلمِ والجَوْرِ، فأنْتَجُوا ظُلماً وآثاراً قبيحةً، يبقى بذلك عارُهُم على الأيامِ، ويَعْظُمُ إثْمُهُم والنَّدَمُ عليها

---

(1) **يساهمك**: يشاركك.
(2) **التبابعة**: جمع تُبِّعٍ لقب ملوك اليمن في الجاهلية.
(3) **غبراتهم**: بقاياهم.
(4) **نوكى**: حمقى.

يومَ الحسابِ، فإنْ كان ذلك؛ فاعلمْ أنَّ الذي أُعجبتَ بهِ مِنْ ذلكَ داخلٌ في العَيْبِ، والخِزْيِ، والعارِ، والشَّنارِ؛ لا في الإعجابِ.

إن أُعجبتَ بولادة الفضلاء إيَّاك

● فإنْ **أُعجبتَ بولادِة الفضلاء إيَّاك**؛ فما أخلى يَدَكَ مِنْ فضلِهم إنْ لم تكنْ أنتَ فاضلاً! وما أقلَّ غناءَهم عنك في الدُّنيا والآخرةِ إنْ لم تكُنْ مُحْسِناً!.

والنَّاسُ ـ كلُّهم ـ وَلَدُ آدمَ، الذي خلَقَه اللهُ تعالى بيَدِهِ، وأَسْكَنَهُ جنَّته، وأَسْجَدَ له ملائكَتَهُ، ولكن ما أقلَّ نَفْعَهُ لهم، وفيهم كُلُّ معيبٍ، وكُلُّ فاسقٍ، وكلُّ كافرٍ[1].

● وإذا فكَّرَ العاقلُ في أنَّ فضلَ آبائِهِ لا يُقَرِّبُهُ من ربِّه تعالى، ولا يُكْسِبُهُ وجاهةً لم يَحُزْها هُوَ بسَعْدِهِ، أو بفَضْلِهِ في نفسِهِ ـ ولا مالاً [49/ب]، فأيُّ معنًى

---

(1) قال رسول الله ﷺ: «**يا فاطمةُ بنتَ محمد، يا صفيةُ بنتَ عبد المطلبِ، يا بني عبدِ المطلب لا أملكُ لكم مِنَ اللهِ شيئاً. سلوني مِنْ مالي ما شئتم**» رواه مسلم (205).

للإعجابِ بما لا مَنْفَعَةَ فيه؟! وَهَلِ المُعْجَبُ بذلك إلَّا كالمُعْجَبِ بمالِ جارِهِ، وبجاهِ غَيْرِهِ، وبفرسٍ لغَيْرِه سَبَقَ كانَ على رأسِهِ لِجامُه[1]؟! وكما تقولُ العامَّةُ في أمثالِها؛ كالخَصِيِّ يَزْهَى[2] بذَكَرِ أبيهِ!.

● **فإن تعدَّى بك العُجْبُ إلى امتداحٍ**؛ فقد تضاعَفَ سقُوطُكَ، لأنَّه قَدْ عَجزَ عَقْلُكَ عَنْ مقاومةِ ما فِيكَ مِنَ العُجْبِ؛ هذا إنِ امتُدِحْتَ بحقٍّ، فكيفَ إن امتُدِحْتَ بالكَذِبِ، وقد كانَ ابنُ نوحٍ، وأَبُو إبراهيمَ، وأبو لَهَبٍ ـ عمُّ النبيِّ ﷺ ـ أقربَ النَّاسِ مِنْ أفضلِ خَلْقِ الله تعالى، ومن الشَّرفِ كلِّه في اتِّباعهم، فما انْتَفَعُوا بذلِكَ.

وقدْ كانَ فِيمَنْ وُلِدَ لغَيْرِ رَشْدَةٍ[3] مَنْ كانَ الغايةَ في

---

(1) هذه حكاية عن أبي عبيدة معمر بن المثنى: أن خيلاً أجريت لرهان، فسبق فرس، فجعل رجل من النظارة يكبّر ويثب، فقيل له: أكان الفرس لك؟ قال: لا ولكن اللجام لي (مجمع الأمثال، للميداني: 2/ 57).

(2) **يزهى**: يعجب، والمثل رواه الميداني في (مجمع الأمثال: 2/ 81) بلفظ قريب.

(3) ولد زنى وسفاح، ويُسمّى وَلَدُ غِيّة.

رئاسةِ الدُّنيا؛ كزيادٍ[1]، وأبي مُسْلِمٍ[2]، ومَنْ كانَ نهايةً في الفَضْلِ على الحقيقة؛ كَبَعْضِ مَنْ نُجِلُّه عن ذِكْرِهِ في مِثْلِ هذا الفَصْلِ، مِمَّنْ يُتَقَرَّبُ إلى اللهِ تعالى بمَحَبَّتِه، والاقتداءِ بحَمِيدِ آثارِهِ.

---

(1) هو: زياد ابن أبيه، وهو: زياد بن سمية، ولد عام الهجرة، وأسلم زمن الصِّدِّيقِ وهو مراهق، استكتبه أبو موسى الأشعري، واستعمله على شيء من البصرة، فأقرَّه عمر، ثم صار مع عليٍّ، فاستعمله على فارس، وولَّاه معاوية إمرة المصْرَين: الكوفة والبصرة، ولم يُجمعا قبله لغيره، وأقام في ذلك خمس سنين، وكان من نبلاء الرجال، رأياً، وعقلاً، وحَزماً، ودهاءً، وفطنةً. قال: إنَّ أبا سفيان أتى الطائف في جاهليته، فسكر، وطلب بَغِيّاً، فواقع سمية، فولدت زياداً. وقد استلحقه معاوية، فصار يقال له: زياد بن أبي سفيان، وقد كان كثيرٌ من الصحابة والتابعين ينكرون ذلك على معاوية، وكان يضرب به المثل في النبل والسؤدد، توفي سنة (53هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (3/ 112).

(2) هو: أبو مسلم الخراساني، داعية بني العباس، كان طاغية سفَّاكاً للدماء، ذا رأي، وعقل، وتدبيرٍ، وحزم، وقد كان الخليفة المنصور في ريبة من أمره، استقدمه المنصور إلى المدائن وقتله في شعبان (137هـ).

إن أُعجبتَ بقوة جسمك

• وإنْ **أُعجبتَ بقوّةِ جِسْمِكَ**؛ فتفكَّر في أنَّ البَغْلَ، والحِمَارَ، والثَّوْرَ؛ [50/أ] أقوى منك، وأحْمَلُ للأثْقالِ.

إن أُعجبتَ بخفتك

• وإنْ **أُعجبتَ بخِفَّتِكَ**؛ فاعلَمْ أنَّ الكلبَ، والأرنبَ، يفُوقَانِكَ في هذا البابِ، فمِنَ العَجَبِ العَجِيبِ؛ إعجابُ ناطقٍ بخَصْلَةٍ يفُوقُهُ فيها غيرُ النَّاطِقِ.

علاج العجب

• واعْلَمْ أنَّ مَنْ قَدَّرَ في نفسِه عُجْباً، أو ظَنَّ لها على سائرِ النَّاس فَضْلاً؛ فلْيَنْظُرْ إلى صَبْرِهِ عندما يَدْهَمُهُ هَمٌّ، أو نَكْبَةٌ، أو وَجَعٌ، أو دُمَّلٌ، أو مُصِيبَةٌ؛ فإن رأى نفسَه قليلةَ الصَّبْرِ، فلْيعلمْ أنَّ جميعَ أهلِ البلاءِ ـ مِنَ المَجْذُومِينَ وغيرِهم ـ الصابِرينَ أفضلُ منه على تأخُّرِ طبقَتِهِم في التَّمِييزِ.

وإنْ رأى نفسَهُ صابرةً فلْيَعْلَمْ[1] أنَّه لم يأتِ بشيءٍ

(1) في (ز): فاعلم، والمثبت من (ش).

يَسْبِقُ فيه على مَنْ ذكرنا، بل هو في ذلك إمَّا متأخِّرٌ عنهم، وإمَّا مُسَاوٍ لهم، ولا مَزِيدَ.

• ثُمَّ لِيَنْظُرْ إلى سيرتِهِ، وعَدْلِهِ أو جَوْرِهِ فيما خَوَّلَهُ[1] الله تعالى مِنْ نِعْمةٍ، أو مالٍ، أو خَوَلٍ[2] أو ولايةٍ، أو أهلٍ، أو جاهٍ.

فإنْ وَجَدَ نفسَهُ مقصِّرَةً فيما يلْزَمُهُ من الشُّكْرِ لواهبه تعالى، ووجَدَها حائِفَةً[3] في العَدْلِ؛ فليعلَمْ [50/ب] أنَّ أهلَ العَدْلِ والشُّكْرِ، والسِّيرة الحَسَنَةِ ـ من المَخَوَّلِينَ أكثرَ ممّا هو فيه ـ أفضلُ مِنْهُ.

وإنْ رأى نفسَه مُلتَزِمةً لِلعَدْلِ؛ فالعادلُ بعيدٌ عَنِ العُجْبِ الْبَتَّةَ، لعِلْمِهِ بمَقَاديرِ الأشياءِ، ومقاديرِ الأخلاق، والْتِزامِهِ التَّوسُّطَ الذي هو الاعتدالُ بين الطَّرَفَيْنِ المَذْمُومَيْن.

---

(1) **خوله**: أعطاه.

(2) **خول**: النَّعم والخدم.

(3) **حائفة**: ظالمة.

فإنْ أُعْجِبَ؛ لم يَعْدِل، بل قد مالَ على جَنَبَةِ الإفراطِ المَذْمومة.

الاستطالة على الرعية سقوط لا مهانة

• واعْلَمْ أنَّ التَّعَسُّفَ، وسُوءَ المَلَكَةِ لِمَنْ خوَّلَكَ اللهُ تعالى أمرَهُ من رَقِيقٍ أو رَعيَّةٍ، يدلَّانِ على خَسَاسَةِ النَّفْسِ، ودناءَةِ الهِمَّةِ، وضَعْفِ العَقْلِ، لأنَّ العاقلَ الرَّفيعَ النَّفْسِ، العاليَ الهمَّةِ؛ إنَّما يُغالِبُ[1] أكْفاءَهُ في القوَّةِ، ونظراءَهُ في المَنَعَةِ.

وأمَّا الاستطالةُ على مَنْ لا يُمكِنُهُ المعارضةُ فسقوطٌ في الطَّبع، ورذالةٌ في النَّفس والخُلُقِ، وعَجْزٌ ومَهَانَةٌ، ومَنْ فَعَلَ ذلك فهو بمنزِلَةِ مَنْ يتبجَّحُ بقتلِ جُرَذٍ، أو بعَقْرِ بُرْغُوثٍ، أو بفَرْكِ قَمْلَةٍ، وحَسْبُكَ بهذه ضَعَةً وخَسَاسَةً.

رياضة النفس أصعب من رياضة الأسد

• واعلم [51/أ] أنَّ رياضةَ النَّفْسِ أصعبُ مِنْ رياضةِ

(1) في (ز): يغالبه، وما أثبته من (ش).

الأُسْدِ، لأنَّ الأُسْدَ إذا سُجِنَتْ في البيوتِ الَّتي تَتَّخِذُها[1] لها الملوكُ أُمِنَ مِنْ شرِّها، والنَّفْسُ ـ وإنْ سُجِنَتْ ـ لم يُؤْمَنْ شَرُّها.

فروع العجب

• والعُجْبُ أصلٌ يتفرَّعُ منه التِّيْهُ، والزَّهْوُ، والكِبْرُ، والنَّخْوَةُ، والتَّعاطي، وهذه أسماءٌ واقعةٌ على معانٍ متقاربةٍ، ولذلك صَعُبَ الفرقُ بينها على أكثرِ النَّاس، فقد يكونُ العُجْبُ بفضيلةٍ في المُعْجَبِ ظاهرةٍ.

فَمِنْ مُعْجَبٍ **بِعِلْمِهِ**؛ فيَكْفَهِرُّ ويَنْغَلِقُ[2] على النَّاسِ، ومِنْ مُعْجَبٍ **بعَمَله**؛ فيترفَّعُ ويَتَعَاطَى، ومِنْ مُعْجَبٍ **برأيه**؛ فيَزْهُو على غيره، ومن مُعْجبٍ **بنَسَبِهِ**؛ فيَتِيهُ، ومن مُعْجَبٍ **بجاهِهِ**، و**عُلُوِّ حالِهِ**؛ فيتكَبَّرُ، ويتَنَخَّى.

مراتب العجب

• فأقلُّ مراتبِ العُجْبِ؛ أنْ تراهُ يتوقَّرُ عَنِ الضَّحِكِ

---

(1) في (ز): تتخذ، والمثبت من (ش).

(2) **ينغلق**: ينعزل.

في مواضِعِ الضَّحكِ، وعَنْ خِفَّةِ الحَركاتِ، وعَنِ الكلامِ إلَّا فيما لا بدَّ مِنْهُ مِنْ أمورِ دُنياهُ، وعَيْبُ هذا أقلُّ مِنْ عَيْبِ غيرِهِ، ولو فعلَ هذِهِ الأفاعيلَ على سبيلِ [51/ب] الاقتصارِ على الواجباتِ، وتركِ الفُضُولِ لكانَ ذلكَ فَضْلاً ومُوْجِباً لحَمْدِهِمْ، ولكنَّهم إنَّما يفعلونَ ذلك احتقاراً للنَّاس، وإعجاباً بأنفسِهِم، فحَصَلَ لهم بذلكَ استحقاقُ الذَّمِّ، و«**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ، ولكلِّ امرئٍ ما نَوى**»[1].

• حتَّى إذا زادَ الأمرُ؛ ولَمْ يَكُنْ هنالِكَ تَمْيِيزٌ يَحْجُبُ عَنْ تَوْفِيَةِ العُجْبِ حقَّه، ولا عقلٌ جيِّدٌ؛ حدثَ من ذلك ظُهورُ الاستخفافِ بالنَّاسِ، واحتقارِهِم بالكلامِ، وفي المعاملةِ.

• حتَّى إذا زادَ ذلكَ، وضَعُفَ التَّمْيِيزُ والعقلُ؛ ترقَّى ذلك إلى الاستطالةِ على النَّاسِ بالأذى باللِّسانِ، واليدِ، والتَّحكُّمِ، والظُّلْمِ، والطُّغيانِ، واقتضاءِ الطَّاعةِ لنفسِه، والخُضوعِ لها إنْ أمكَنَهُ ذلك.

---

(1) حديث رواه البخاري (1) ومسلم (7).

• فإنْ لـم يَقْدِرْ على ذلكَ امتدحَ بلسانِهِ، واقْتَصَرَ على ذمِّ النَّاسِ والاستهزاءِ بهم.

التمنزل والسبب الباعث عليه

وقد يكونُ العُجْبُ لغير معنًى، ولغيرِ فَضيلةٍ في المُعْجَبِ، وهذا مِنْ عجيبِ ما يقعُ في هذا البابِ، وهو شيءٌ تسمِّيه عامَّتُنا [52/أ] **التَّمَنْزُلَ**، وكثيراً ما تراهُ في النِّساءِ، وفي مَنْ عَقْلُه قريبٌ مِنْ عقُولِهِنَّ مِنَ الرجالِ، **وهو عُجْبُ مَنْ ليسَ فيه خَصْلةٌ أصلاً، لا عِلْمٌ، ولا شجاعةٌ، ولا علوُّ حالٍ، ولا نَسَبٌ رفيعٌ، ولا مالٌ يُطْغِيهِ، وهو مع ذلكَ يعلَمُ أنَّهُ صِفرٌ مِنْ كلِّ ذلكَ**، لأنَّ هذه أمورٌ لا يَغْلَطُ فيها مَنْ لا يُقْذَفُ بالحجارةِ(1)، وإنَّما يَغْلطُ فيها مَنْ له أدنى حظٍّ منها.

فربّما يتوهَّمُ إنْ كانَ ضعيفَ العقلِ أنَّه قد بلغَ الغايةَ القُصْوى منها.

كمَنْ لَهُ حظٌّ مِنْ علم، فظنَّ أنَّه عالمٌ كاملٌ.

أو **كَمَنْ له نَسَبٌ مُعْرِقٌ في ظَلَمةٍ** ـ وتجدُهم لم

---

(1) **من يُقْذَفُ بالحجارة**: المجنون ومن في عقله لوثة.

يكونوا أيضاً رُفعاءَ في ظُلْمِهِم ـ فتجِدُهُ لو كانَ ابنَ فرعونَ ذي الأوتادِ[1] ما زادَ على إعجابه الذي فيه.

أو له **شيءٌ مِنْ فُرُوسيَّةٍ**، فهو يُقَدِّرُ أنَّه يهزِمُ عليّاً[2]، ويَأْسِرُ الزُّبَيْرَ[٣]، ويَقْتُلُ خالِداً[٤].

أو **لَهُ شيءٌ مِنْ جاهٍ رَذْلٍ**، فهو لا يرى الإسكندرَ[5] على حالٍ.

أو **يكونُ قويّاً على أَنْ يكتَسِبَ**، ما يتوفَّرُ بيدِهِ مُوَيْلٌ[6] [52/ب] يفضُلُ عن قوته، فلو أخَذَ بقَرْني الشَّمس لم يَزِدْ على ما هو فيه.

وليسَ يَكْثُرُ العَجَبُ مِنْ هؤلاءِ ـ وإنْ كانُوا عَجَباً ـ لكنْ مِمَّنْ لا حظَّ له مِنْ علمٍ أصلاً، ولا نَسَبٍ البتَّةَ، ولا مالٍ، ولا جاهٍ، ولا نَجْدَةٍ، بل تراهُ في كَفَالةِ غيره،

---

(1) **الأوتاد**: الأهرام.

(2) **عليّ** بن أبي طالب رضي الله عنه (ت40هـ).

(3) **الزبير** بن العوّام رضي الله عنه (ت36هـ).

(4) **خالد** بن الوليد رضي الله عنه (ت21هـ).

(5) **الإسكندر** الأكبر المقدوني (356 ـ 323 ق.م) ملك مقدونية وأشهر الفاتحين في العصور القديمة، وأحد عباقرة الحرب.

(6) **مويل**: تصغير مال، للدلالة على قلته.

ومُهْتَضَماً[1] لِكُلِّ مَنْ له أدنى طاقَةٍ، وهو يعلمُ أنَّه خالٍ مِنْ كلِّ ذلكَ، وأنَّه لا حَظَّ له في شيءٍ منه، **ثُمَّ هو مَعَ ذلكَ في حالةِ المَزْهُوِّ التَّيَّاهِ!**

• ولقدْ تسبَّبْتُ إلى سؤالِ بعضِهم في رفقٍ ولِينٍ، عَنْ سببِ عُلُوِّ نفسِه، واحتقارِهِ للنَّاسِ، فما وجدتُ عندَهُ مزيداً على أنْ قالَ لي: أنا حرٌّ، لستُ عَبْدَ أحدٍ.

فقلتُ له: أكثرُ مَنْ تَراهُ يُشارِكُكَ في هذه الفَضِيلَةِ، فهُمْ أحرارٌ مِثْلُكَ، إلَّا قوماً من العبيدِ، هُمْ أطولُ يداً منكَ، وأمرُهم نافِذٌ عليكَ، وعلى كثيرٍ من الأحرار. فلم أَجِدْ عندَه زيادةً.

فرجعتُ إلى تَفْتِيشِ أحوالِهم ومراعاتِها، ففكَّرتُ في ذلكَ سنينَ، لأعلمَ السببَ الباعثَ لهم على هذا [53/أ] العُجْبِ الذي لا سببَ له، فلم أزَلْ أختبِرُ ما تَنْطوي عليه نفوسُهُم؛ ممّا يَبْدُو مِنْ أحوالِهِم: ومِنْ مراميهم في كلامِهِم، فاسْتقرَّ أمرُهُم على **أنَّهم يُقَدِّرُونَ أنَّ عندَهم فَضْلَ عقلٍ وتَمْييزٍ ورأيٍ أصيلٍ، لو أمكنَتْهُمُ الأيامُ من تَصْرِيفِه لوَجَدُوا فيه مُتَّسَعاً، ولأدارُوا الممالِكَ الرَّفيعةَ، ولبانَ فضلُهم على سائرِ**

---

(1) **مهتضماً**: مستضعفاً.

النَّاسِ، ولو ملكُوا مالاً لأحسنوا تَصْرِيفَهُ، فمِنْ هاهنا تَسَبَّبَ التِّيْهُ إليهم، وسَرَى العُجْبُ فيهم.

كلما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلاً

• وهذا مكانٌ للكلامِ فيه شَغَبٌ عَجِيبٌ، وعارِضَةٌ مُعْتَرِضَةٌ، وهو أنَّه ليسَ شيءٌ من الفضائلِ كلَّما كانَ المرءُ منه أعرى؛ قَويَ ظنُّه في أنَّه قد استولى عليه، واستمرَّ يَقِينُه في أنه قد كَمُلَ فيه؛ **إلَّا العقلُ والتَّمْييزُ،** حتَّى إنَّكَ تجدُ المجنونَ المُطْبِقَ[1]، والسَّكْرانَ الطَّافِحَ يَسْخَرانِ بالصَّحيحِ، والجاهِلَ النّاقِصَ يَهْزُلُ بالحُكَماءِ والأفاضلِ العلماءِ، والصبيانَ الصِّغارَ يتهكَّمُونَ بالكُهولِ، والسُّفهاءَ [53/ب] العَيَّارينَ[2] يَسْتَخِفُّونَ بالعقلاءِ المتصاوِنينَ، وضَعَفَةَ النساءِ يَسْتَنْقِصْنَ عقولَ أكابرِ الرِّجالِ وآرائِهِم.

• وبالجملة؛ فكلَّما نقصَ العقلُ توهَّمَ صاحِبُهُ أنَّه

(1) **المجنون المطبق**: الذي لا يفيق من جنونه.

(2) **العيار**: النشيط في المعاصي.

أوفرُ النَّاسِ عقلاً، وأكمَلُ ما كانَ تَمييزاً، ولا يَعْرِضُ هذا في سائرِ الفضائلِ، فإنَّ العاري منها جملةً يدري أنّه عارٍ منها، وإنَّما يدخُلُ الغَلَطُ على مَنْ له أدنى حظٍّ منها؛ وإنْ قلَّ، فإنَّه يتوهَّمُ ـ حِينَئِذٍ ـ إنْ كانَ ضعيفَ التَّمْيِيز؛ أنَّه عالي الدَّرجةِ فيه.

● ودواءُ من ذكرنا الفَقْرُ والخُمولُ، فلا دواءَ أنْجَعُ لهم مِنْه، وإلَّا فداؤُهُم وضَرَرُهُم على النَّاس عظيمٌ جدّاً، ولا تجدُهُم إلَّا عيَّابِينَ النَّاسَ[1]، وقّاعينَ في الأعراضِ، مُسْتَهزِئينَ بالْجَميعِ، مجانِبينَ للحقائقِ، مُكِبِّينَ على الفضولِ، وربَّما كانوا مع ذلك متعرِّضينَ للمُشَاتَمَةِ، والمُهارَشَةِ، وربَّما قصدُوا إلى الملاطَمَةِ، والمُضَارَبةِ؛ عند أدْنى سببٍ يَعْرِضُ لهم.

قد يكون العُجبُ كامناً في النفس

● وقد يكونُ [54/أ] العُجْبُ مكتنّاً[2] في المرءِ حتَّى

---

(1) في ش: (للنَّاسِ).

(2) **مكتنّاً**: كامناً.

إذا حَصَلَ على أدنى جاهٍ، أو مالٍ؛ ظهرَ ذلك عليه، وعَجَزَ عَقْلُهُ عن قَمْعِهِ وسَتْرِهِ.

طريف ما يقع من ضعاف العقول

• ومن طريف ما رأيتُ في بعضِ أهلِ الضَّعْفِ؛ أنَّ مِنْهم مَنْ يَغْلِبُهُ ما يُضْمِرُ مِنْ محبَّةِ ولَدِهِ الصَّغيرِ، وامرأتِهِ حتَّى يَصِفَها بالعقلِ في المحافِلِ، وحتَّى إنّه يقولُ: هي أعقلُ مِنِّي، وأنا أتبرَّكُ بوصيَّتها!.

وأمَّا مدحُهُ إيَّاها بالجمالِ، والحُسْنِ، والعافِيَةِ؛ فكثيرٌ في أهلِ الضَّعفِ جدّاً، حتَّى إنَّه لو كانَ خاطباً لها ما زادَ على ما يقولُ في ترغيبِ السَّامِعِ لوَصْفِهِ لِمَا فيها، ولا يكونُ هذا إلَّا في ضَعيفِ العقلِ، عارٍ مِنَ العُجْبِ بنَفْسِهِ.

إياك والامتداح

• **إيَّاكَ والامتداحَ**؛ فإنَّ كلَّ مَنْ يسمعُكَ لا يصدِّقُكَ؛ وإنْ كنتَ صادقاً، بل يَجْعَلُ ما سَمِعَ منكَ ـ مِنْ ذلك ـ في أوَّلِ معايبِكَ.

إياك ومدح أحد في وجهه

• **وإيَّـاكَ ومَـدْحَ أحـدٍ فـي وَجْـهِـهِ**، فـإنَّـه فِـعْـلُ أهـلِ المَلَقِ، وضَعَةِ النُّفوسِ.

إياك والذم

• وإيَّـاكَ وذمَّ أحـدٍ فـي حَـضْـرَتِـهِ، ولا [54/ب] فـي مَغِيبِهِ، فلك في إصلاحِ نفسِكَ شُغْلٌ.

إياك والتفاقر

• وإيَّاكَ والتّفَاقُرَ[1]؛ فإنَّك لا تَحْصُلُ من ذلك إلَّا على تَكْذِيبِكَ، أو احتِقارِ مَنْ يسمَعُكَ، ولا مَنْفعةَ لك في ذلك أصلاً، إلَّا كُفْرُ نِعْمَةِ ربِّكَ تعالى، أو شَكْواهُ إلى مَنْ لا يَرْحَمُكَ.

إياك ووصف نفسك باليسار

• **وإيَّاكَ ووَصْفَ نَفْسِكَ باليَسارِ**؛ فإنَّكَ لا تَزيدُ على إطماعِ السَّامِعينَ فيما عنْدَك، ولا تَزِدْ على شُكْرِ الله

(1) **التفاقر**: التظاهر بالفقر.

تعالى وذِكْرِ فَقْرِكَ إليه، وغِناكَ عمّنْ دُونَه، فإنَّ هذا يُكْسِبُكَ الجَلالَةَ والرّاحةَ مِنَ الطَّمعِ فيما عنْدَكَ.

العاقل

• العاقِلُ هُوَ مَنْ لا يُفارِقُ ما أَوْجَبَهُ تَمْيِيزُهُ.

إذا عُرفت باليسار فأعط قبل السؤال

• مَنْ سبَّبَ للنَّاسِ الطَّمعَ فيما عندَهُ؛ لم يحصلْ إلَّا على أنْ يَبْذُلَهُ لهم، ولا غايةَ لهذا، أو يَمْنَعَهُم فَيَلْؤُمَ، ويعادُونَهُ.

وإذا أردتَ أنْ تُعطيَ أحداً شيئاً فليكنْ ذلكَ مِنْكَ قبلَ أنْ يَسْأَلَكَ، فهو أكرمُ وأنْزَهُ وأوجبُ للحَمْدِ.

من بديع ما يقع من الحسد

• مِنْ بديعِ ما يَقَعُ في الحَسَدِ قولُ الحاسدِ إذا سَمِعَ إنساناً يُغْرِبُ [55/أ] في علم ما: هذا شَيْءٌ باردٌ، إذْ لم يُتَقدَّمْ إليه، ولا قالَهُ قَبْلَهُ أحدٌ.

فإنْ سمعَ مَنْ يُبَيِّنُ ما قد قالَهُ غيرُهُ، قالَ: هذا باردٌ، وقد قيلَ قبلَهُ.

وهذه طائِفَةُ سوءٍ، قد نَصَبَتْ أنفُسَها للقعودِ على طريقِ العلمِ، يصدُّونَ النَّاسَ عنها، ليَكْثُرَ نظراؤُهم من الجُهَّال.

خبيث الطبع

• الحكيمُ لا تنْفَعُهُ حِكْمَتُه عند الخَبِيْثِ الطَّبْعِ، بل يَظُنَّه خبيثاً مِثْلَهُ. وقد شاهدتُ أقواماً ذوي طبائعَ رديَّةٍ ـ وقد تصوَّرَوا في أنفُسِهم الخَبِيثَةِ أنَّ النَّاسَ كلَّهم على مِثْلِ طبائِعهم، لا يُصَدِّقُونَ أصلاً بأنَّ أحداً هو سالِمٌ مِنْ رذَائِلهم بوَجْهٍ من الوُجُوهِ، وهذا أسْوأُ ما يكونُ مِنْ فسادِ الطَّبْعِ، والبُعْدِ عن الفَضْلِ والخَيْرِ، ومَنْ هذه صِفَتُهُ لا يُرجَى لها معاناةٌ[1] أبداً، وبالله التَّوْفيقُ.

العدل حصنُ كل خائفٍ

• العَدْلُ حِصْنٌ يَلْجأُ إليه كُلُّ خائفٍ، وذلك أنَّكَ

---

(1) أي: علاجٌ.

ترى الظَّالِمَ وغيرَ الظَّالمِ إذا رأى مَنْ يُريدُ ظُلْمَهُ دعا إلى العَدْلِ، وأنْكَرَ الظُّلمَ ـ حِينَئِذٍ ـ [55/ب] وذمَّه، ولا ترى أحداً يَذُمُّ العَدْلَ، فَمَنْ كانَ العَدْلُ في طَبْعِهِ فهو ساكِنٌ في ذلك الحِصْنِ الحَصِينِ.

الاستهانة نوع من الخيانة

● الاستهانةُ نوعٌ من أنواعِ الخِيَانَةِ؛ إذْ قد يَخُونُكَ مَنْ لا يَسْتَهِينُ بكَ، ومَنِ استهانَ بكَ فقد خانَكَ الإنصاف[1]؛ فكلُّ مُسْتَهينٍ خائِنٌ، وليسَ كلُّ خائنٍ مُسْتهيناً.

● الاستهانةُ بالمتاعِ دليلٌ على الاسْتِهانَةِ بربِّ المتاعِ.

ما يحسن في المعاتبة والاعتذار

● حالانِ يَحْسُنُ فيهما ما يَقْبُحُ في غيرِهِمَا، وهما: المُعاتَبَةُ، والاعتذارُ، فإنَّه يَحْسُنُ فيهما تَعْدِيدُ الأيادي، وذِكْرُ الإحسانِ، وذلكَ غايةُ القُبْحِ فيما عدَا هذَيْنِ الحالَيْنِ.

---

(1) كلمة (الإنصاف) لم أجد لها معنى، فلعلها مقحمة.

ستر القبائح فضيلة

• لا عيبَ على مَنْ مالَ بطَبْعِهِ إلى بعضِ القَبائِحِ، ولو أنَّه أشدُّ العيوبِ، وأعظمُ الرَّذائلِ، ما لَمْ يُظْهِرْهُ بقولٍ، أو فعلٍ، بل يكادُ يكونُ أحْمَدَ مِمَّنْ أعانَهُ طَبْعُهُ على الفَضائِلِ، ولا تكونُ مغالَبَةُ الطَّبْعِ الفاسِدِ إلَّا عَنْ قوَّةِ عقلٍ فاضلٍ.

الخيانة في الحُرَم

• الخِيانَةُ في الحُرَمِ[1] أشدُّ من [56/أ] الخيانةِ في الدِّماءِ.

الكريم يصون الأعلى بالأدنى

• العِرْضُ أعزُّ على الكريمِ من المالِ.

• ينبغي للْكَريمِ أنْ يَصُونَ جسمَه بمالِهِ، ويَصُونَ نَفْسَهُ بِجِسْمِهِ، ويَصُونَ عِرْضَهُ بنفْسِهِ، ويصونَ دِينَهُ بعِرْضِهِ، ولا يَصُونَ بدِينِهِ شيئاً أصْلاً.

---

(1) **حُرَمُ الرَّجل**: أهله ونساؤه.

الخيانة في الأعراض
أخف من الخيانة في الأموال

• الخيانةُ في الأعراضِ أخفُّ من الخيانةِ في الأموالِ، وبرهانُ ذلكَ؛ أنَّه لا يكادُ يُوجَدُ مَنْ لا يخونُ في العِرْضِ، وإنْ قلَّ ذلكَ مِنْهُ، وكانَ مِنْ أهلِ الفَضْلِ، وأمَّا الخيانةُ في المالِ ـ وإنْ قلَّتْ أو كَثُرَتْ ـ فلا تكونُ إلَّا مِنْ رَذْلٍ، بعيدٍ عنِ الفَضْل.

القياس في أحوال الناس قد يكذب

• القياسُ في أحوالِ النَّاسِ قد يكْذِبُ في أكثرِ الأمرِ، ويَبْطُلُ في الأغْلَبِ، واستعمالُ ما هذِهِ صِفَتُهُ في الدِّينِ لا يَجُوزُ.

المقلد يغبن عقله

• المقلِّدُ راضٍ أن يُغْبَنَ عَقْلُهُ، ولعلَّه مَعَ ذلكَ يَسْتَعْظِمُ أنْ يُغْبَنَ في مالِهِ، فيُخْطِئُ في الوجهَيْنِ جميعاً.

الغبن في المال

• لا يَكْرَهُ الغُبْنَ في مالِهِ ويَسْتَعْظِمُهُ إلَّا لَئيمُ الطَّبْعِ، دقيقُ الهِمَّةِ، مَهِينُ النَّفْسِ.

الإسلام يحتوي على جميع الفضائل

● مَنْ جَهِلَ [56/ب] مَعْرِفةَ الفضائل؛ فلْيَعْتَمِدْ على ما أَمَرَهُ الله تعالى ورسولُهُ ﷺ، فإنَّه يَحتوي على جميعِ الفضائِلِ.

الخروج عن حدّ الاعتدال

● رُبَّ مَخُوفٍ كانَ التَّحفُّظُ منه سببَ وقوعه، ورُبَّ سِرٍّ كانتِ المبالغةُ في طَيّهِ عِلّةَ انتشاره، ورُبَّ إعراضٍ أبلغُ في الاسترابَةِ من إدامَةِ النَّظَرِ، وأصلُ ذلك ـ كلِّه ـ الإفراطُ الخارجُ عن حدِّ الاعتدالِ.

الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط

● الفضيلةُ وَسِيطةٌ بين الإفراطِ والتَّقْصِير[1]، وكِلَا الطَّرفَيْنِ مَذْمُومٌ، والفضيلةُ بينهما مَحْمودَةٌ، حاشا العَقْلَ فإنّه لا إفراطَ فيه.

---

(1) في ش: (التَّفْريط) وهو والتقصير بمعنًى.

خطأ خيرٌ من خطأ

• الخطأُ في الحَزْمِ خَيْرٌ من الخَطَأ في التَّضْييعِ.

من العجائب

• مِنَ العجائبِ أنَّ الفضائِلَ مَسْتَحْسَنَةٌ مُسْتَثْقَلَةٌ، والرَّذائلَ مُسْتَقْبَحَةٌ مُسْتَخَفَّةٌ.

من أراد الإنصاف

• مَنْ أرادَ الإنصافَ فليتوهَّم نفسَهُ مكانَ خَصْمِهِ، فإنَّهُ يَلُوحُ له وَجْهُ تعسُّفِهِ.

حدّ الحزم

• حَدُّ الحَزمِ معرفةُ الصَّديقِ مِنَ العدوِّ، وغايةُ الخُرْقِ[1] والضَّعْفِ جهلُ العدوِّ من الصَّديقِ.

---

(1) **الخرق**: أن لا يحسن الرجل العمل والتَّصرُّف في الأمور.

غاية الخير وغاية الشر

• لا تُسْلِمْ [57/أ] عدوَّك لِظُلْمٍ، ولا تَظْلِمْهُ، وساوِ في ذلكَ بَيْنَهُ وبينَ الصَّديقِ.

وتحفَّظْ منه، وإيَّاكَ وتَقْرِيبَهُ، وإعلاءَ قَدْرِهِ، فإنَّ هذا من أفعالِ النَّوكى.

• مَنْ ساوى بينَ عدوِّه وصَدِيقِهِ في التَّقْرِيبِ والرِّفْعَةِ لم يَزِدْ على أنْ زَهَّدَ النَّاسَ في مودَّتِه، وسَهَّلَ عليهم عَداوَتَهُ، ولم يَزِدْ على استِخْفافِ عَدُوِّه بهِ[1]، وتَمْكِينِهِ من مَقَاتِلِهِ، وإفسادِ صَدِيقهِ على نفسه، وإلحاقِهِ بجُمْلَةِ أعدائِهِ.

• غايةُ الخَيْرِ أنْ يَسْلَمَ عَدُوُّكَ مِنْ ظُلْمِكَ، ومِنْ تَرْكِكَ إيَّاهُ للظُّلْمِ، وأمَّا تَقْرِيبُهُ فمِنْ شِيَمِ النّوكى الذينَ قد قَرُبَ مِنْهُمُ التَّلَفُ.

• وغايةُ الشَّرِّ أنْ [لا][2] يَسْلَمَ صديقُكَ مِنْ ظُلْمِكَ،

---

(1) في (ز): (له)، وهي ساقطة من (ش).

(2) زيادة من (ش).

وأمَّا إبعادُهُ فمِنْ فِعْلِ مَنْ لا عَقْلَ له، ومن كُتِبَ عليه الشَّقاءُ.

• ليسَ الحِلْمُ تقريبَ العدوِّ، ولكنَّه مُسَالَمَتُهُمْ مع التَّحَفُّظِ مِنْهُمْ.

التفاخر بالمال مهلكة

• كمْ رأينا مَنْ فاخَرَ[1] بما عِنْدَهُ مِنَ المتاعِ، كانَ ذلك سبباً لهلاكِهِ، فإيَّاكَ وهذا البابَ الذي هو ضُرٌّ مَحْضٌ، لا مَنْفعةَ فيه أصلاً.

آفات اللسان

• كم شاهَدْنا مِمَّنْ أهلَكَهُ كلامُهُ، ولم نَرَ قطُّ أحداً ـ ولا بلغَنَا ـ أنَّه أهلَكَهُ سكوتُهُ، فلا تتكلَّمْ إلَّا بما يُقَرِّبُكَ مِنْ خالِقِكَ، فإنْ خِفْتَ ظالماً فاسْكُتْ.

انتهاز الفرص

• قلَّ ما رأيتُ أمراً أمكنَ فضُيِّع إلَّا فاتَ، فلَمْ يُمْكِنْ بَعْدُ.

---

(1) في (ز): (مِنْ فاخرٍ).

محنة الإنسان بالناس

• مِحَنُ الإنسانِ في دَهْرِهِ كثيرةٌ، وأَعْظَمُها محنَتُه بأهلِ نَوْعِهِ من الإنسِ.

• داءُ الإنسانِ بالنَّاسِ أعظمُ مِنْ دائِهِ بالسِّباعِ الكَلِبَة، والأفَاعي الضَّاريَةِ، لأنَّ التَّحَفُّظَ مِنْ كلِّ ما ذكرنا مُمْكِنٌ، ولا يُمْكِنُ التَّحَفُّظُ من الإنسِ أصلاً.

الغالب على الناس النفاق

• الغالِبُ على النَّاسِ النِّفاقُ، ومِنَ العَجَبِ أنَّه لا يجوزُ مَعَ ذلك عِنْدَهُم إلَّا مَنْ نافقَهُم.

نتائج الأضداد تتساوى

• لو قالَ قائِلٌ: إنَّ في الطِّباعِ كُرِّيَّةً[1] ـ لأنَّ أطرافَ الأضدادِ تَلْتَقِي ـ؛ لم يَبْعُدْ من الصِّدقِ. وقد نَجِدُ

(1) في الكرة كلُّ نقطةٍ على محيطها هي بدايةُ دائرةٍ ونهايتُها.

نتائجَ الأضدادِ تتساوى، فنَجِدُ المرءَ يَبْكي مِنَ الفَرَحِ ومِنَ الحُزْنِ، ونَجِدُ فَرْطَ المودَّةِ يَلْتقي مع فَرْطِ البغْضَةِ [58/أ] في تَتَبُّعِ العَثَراتِ، وقد يكونُ ذلك سبباً للقطيعةِ عند مَنْ عَدِمَ الصَّبْرَ والإِنْصافَ.

من غلبت عليه طبيعة ما

• كلُّ مَنْ غلبتْ عليه طبيعةٌ ما، فإنَّه ـ وإنْ بلَغَ الغايةَ مِنَ الحَزْمِ والحَذَرِ ـ فإنُّه مَصْرُوعٌ إذا كُويدَ مِنْ قِبَلِها.

كثرة الريب تعلم الكذب

• كَثْرةُ الرِّيَبِ تُعْلِّمُ صاحبَها الكذبَ، لكثرةِ ضَرُورَتِهِ إلى الاعتذارِ بالكَذِبِ، فيَضْرَى عليه، ويَسْتَسْهِلُهُ.

أعدل الشهود على الصادق

• أَعْدَلُ الشُّهودِ على المَطْبُوعِ على الصِّدقِ وَجْهُهُ، لِظُهورِ الاسْتِرابَةِ عليه إنْ وَقَعَ في كِذْبَةٍ أوْ هَمَّ بها.

أعدل الشهود على الكذّاب

• وأعْدَلُ الشُّهودِ على الكذَّابِ لِسَانُهُ؛ لاضْطِرابِهِ، ونقضِ بعضِ كلامِهِ بعضاً.

المصيبة في الصديق

• المُصِيْبَةُ في الصَّديقِ النَّاكِثِ أعظمُ مِنَ المصيبةِ بهِ.

مفارقة

• أشدُّ النَّاسِ استعظاماً للعيُوبِ بلسانِهِ هو أشدُّهُم اسْتِسْهالاً لها بفِعْلِهِ، ويَتَبَيَّنُ ذلك في مُسَافَهاتِ أهلِ البَذَاءِ، ومُشَاتَماتِ الأَرَاذِلِ، البالغينَ غايةَ الرَّذالةِ مِنَ الصِّناعاتِ [58/ب] الخَسِيسَةِ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، كأَهلِ التَّعَيُّشِ بالزَّمير[1]، وكَنْسِ الحُشُوشِ[2]، والخَادِمينَ في المَجَازِرِ، وساكني دورِ الحَمْلِ المُبَاحَاتِ لكِراءِ الجماعاتِ [الرذلة][3]، والسَّاسَةِ للدَّوابِ، فإنَّ كُلَّ مَنْ ذكرنا أشدُّ الخَلْقِ رمياً مِنْ بعضِهم لبعضٍ بالقبائحِ، وأكثرُهُم عَيْباً بالفضائحِ، وهُمْ أوغلُ النَّاسِ فيها، وأشْرَهُهُمْ[4] بها.

---

(1) كالغجر ونحوهم.

(2) جمع حُشٍّ وهو الكنيف.

(3) زيادة من (ش): وهم من يسمّون الشيّالين أو الحمالين.

(4) في (ش): (أشهرهم).

أثر اللقاء

• اللقاءُ يَذْهَبُ بالسَّخائِم، فكأَنَّ نظرَ العينِ على العينِ يُصْلِحُ القلوبَ، فلا يَسُرُّكَ الْتِقاءُ صَديقِكَ بعدوِّكَ، فإنَّ ذلكَ يُفْتِرُ أمرَهُ عِنْدَهُ[1].

أشد الأشياء على الناس

• أشدُّ الأشياءِ على النَّاسِ: الخوفُ، والهَمُّ، والمرضُ، والفَقْرُ، وأشدُّها كلّها إيلاماً للنَّفْسِ الهَمُّ لِلْفَقْدِ مِنَ المَحْبُوْبِ، وتوقُّعِ المَكْروهِ، ثُمَّ المَرَضُ، ثُمَّ الخَوْفُ، ثُمَّ الفقرُ.

ودليلُ ذلكَ:

أنَّ الفقرَ **يُسْتَعْجَلُ** ليُطْرَدَ به الخوفُ؛ فيَبْذُلُ المرءُ مالَهُ كلَّه ليأْمَنَ.

والخوفُ والفقرُ **يُسْتَعْجَلانِ** ليُطْرَدَ بهما أَلَمُ المرضِ؛ فيُغَرِّرُ الإنسانُ في طلبِ الصِّحَّةِ، ويبذلُ [59/أ] ماله فيها

(1) وهذا أمر أدركه الساسة، فحرصوا على المفاوضات المباشرة بين الخصوم، لأنّ اللقاءَ يكسِرُ من حِدّة الخصومة.

إذا أشْفقَ من الموتِ، ويودُّ ـ عندَ يَقِينِهِ به ـ لو بَذَلَ ماله كلَّه ويَسْلَمُ ويُفِيقُ.

والخوفُ **يُسْتَسْهَلُ** ليُطْرَدَ به الهَمُّ، فيغرِّرُ المرءُ بنفسِهِ ليَطْرَدَ عنها الهَمَّ.

وأشدُّ الأمراضِ كلِّها ألماً وجعٌ ملازمٌ في عضوٍ ما بِعَيْنِهِ.

وأمَّا النفوسُ الكريمةُ؛ فالذُّلُّ عندَها أشدُّ مِمَّا ذكرنا، وهو أسهلُ المَخُوفاتِ عند ذَوي النُّفُوسِ اللَّئِيمَةِ.

الأخلاق سور الفضائل

ومِمَّا قلْتُه في الأخلاق: [مجزوء الرمل]

إنَّما العَقْلُ أَسَاسٌ فَوْقَهُ الأخلاقُ سُورُ

وحُلِيُّ[1] العَقْلِ بالعِلْـ ـمِ، وإلَّا فَهْوَ بُورُ

جاهِلُ الأشياءِ أعْمى لا يَرَى حَيْثُ يَدُورُ

---

(1) في (ش): (فتحلَّ العقلُ).

وتَــمــامُ الــعِــلْــمِ بــالــعَــدْ
لِ، وإلَّا فَـــــهْـــــوَ زُوْرُ
وتَـمَــامُ الــعَــدْلِ بــالــجُــوْ
دِ، وإلَّا فَــهْــوَ جُــوْرُ[١]
ومِــلاكُ الــجُــودِ بــالــنَّــجْــ
دَةِ، والــجُــبْــنُ غُــرُورُ
[59/ب] عِــفَّ إنْ كــنــتَ غــيــوراً
مــا زَنــى قَــطُّ غَــيُــوْرُ
وكــمــالُ الــكُــلِّ بــالــتَّــقْــ
وى، وقــولُ الــحَــقِّ نُــورُ
ذي أصــولُ الــفَــضْــلِ عَــنْــهــا
حَــدَثَــتْ بَــعْــدُ الــنُّــذُورُ[٢]

---

(1) البيت في (ز): (وزِمَامُ العَدْلِ بالجودِ وإلّا فيجورُ)، والمثبت من (ش).

(2) في (ز): البزور، والمثبت من (ش).

أصول الفضائل

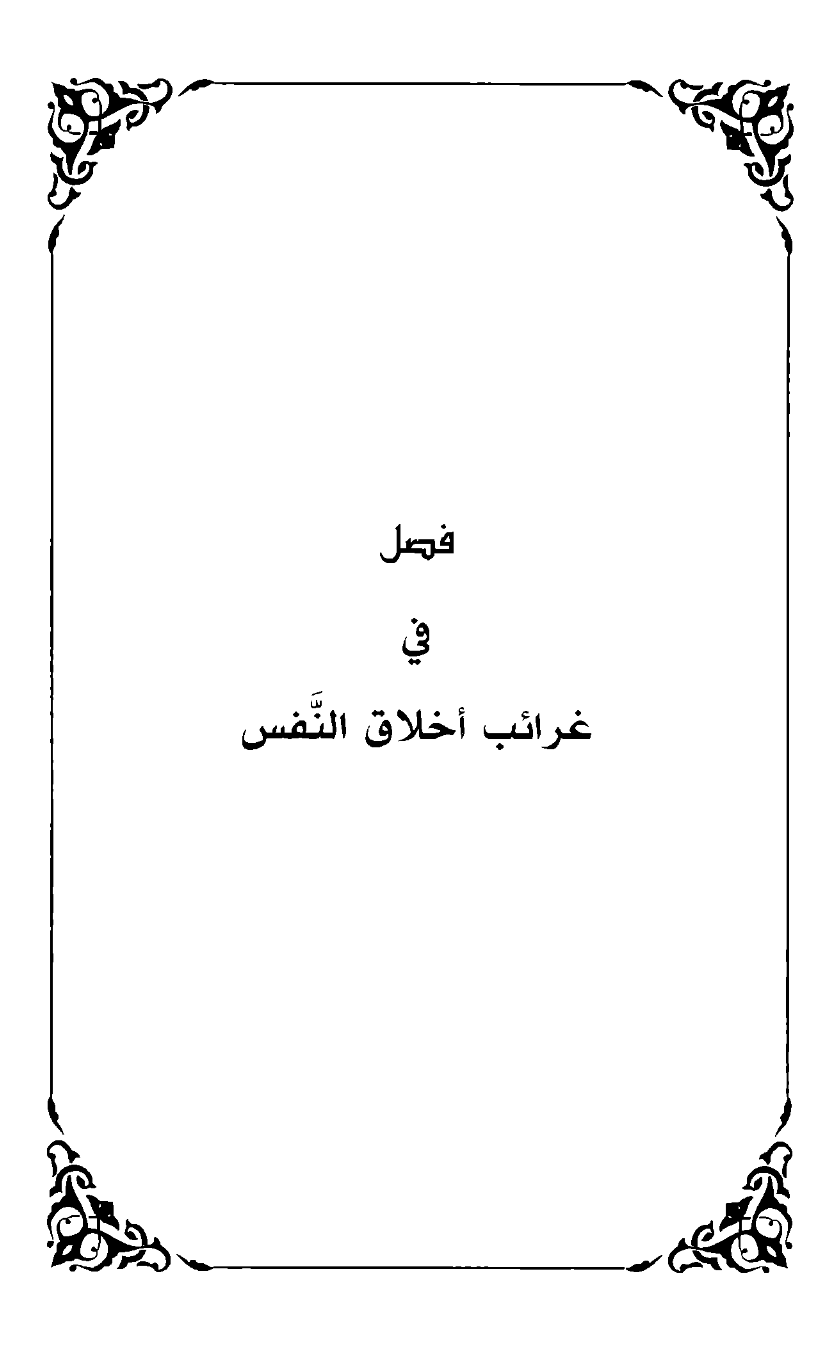
وأيضاً : [من المتقارب]

زِمَـامُ أُصُـولِ جَـمِـيـعِ الْـفَـضَـائِـ
لِ عَـدْلٌ وَفَـهْـمٌ وجُـودٌ وبَـاسُ

فَـعَـنْ هـذِهِ رُكِّـبَـتْ غَـيْـرُهـا
فمَـنْ حـازَهـا فَـهْـو في الـنَّـاسِ رَاسُ

كـذا الـرَّاسُ فِـيـهِ الأُمـورُ الَّـتـي
بـإحْـسَـاسِـهـا يُـكْـشَـفُ الالْـتِـبـاسُ





فصل

في

غرائب أخلاق النَّفس

مكان ينبغي التثبت فيه

● ينبغي للعاقلِ ألّا يَحْكُمَ بما يَبْدو لَهُ مِنِ اسْتِرْحامِ الباكي المُتَظَلِّمِ وتَشَكِّيهِ، وشدَّةِ تَلَوِّيهِ[1] وتَقَلُّبِهِ وبُكائِهِ، فقد وقفتُ مِنْ بعضِ مَنْ يَفْعلُ هذا على يقينٍ أَنَّه الظَّالِمُ المعتدي، المُفْرِطُ الظُّلْمَ. ورأيتُ بعضَ المَظْلُومِينَ ساكِنَ الكلامِ، مَعْدُومَ التَّشَكِّي، مُظْهِراً لقلَّةِ المُبالاةِ، فيَسْبِقُ إلى نَفْسِ مَنْ لا [60/أ] يُحَقِّقُ النَّظَرَ أنَّه ظالِمٌ.

وهذا مكانٌ يَنْبغي التَّثَبُّتُ فيه، ومغالَبَةُ مَيْلِ النَّفْسِ جملة، وأنْ لا يَمِيلَ المرءُ مع صِفَةِ الَّذي ذكرنا، ولا علَيْها، لكنْ يقصدُ الإنصافَ بما يُوجِبُهُ الحقُّ على السَّواءِ.

الغفلة مذمومة والتغافل محمود

● مِنْ عجائِبِ الأخلاقِ أنَّ الغَفْلَةَ مذمُومَةٌ، وأنَّ استعمالَها مَحْمُودٌ، وإنَّما ذلك لأنَّ مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ على الغفلةِ يَسْتَعْمِلُها في غيرِ مَوْضِعِها، وفي حيثُ يجبُ

(1) في (ش): (تلوّمه).

التَّحفُّظ، وهو مُغيَّبٌ عن فَهْمِ الحقيقةِ، فدخلتْ تحتَ الجَهْلِ فذُمَّتْ لذلكَ.

• وأمَّا المُتيَقِّظُ الطَّبْعِ؛ فإنَّه لا يَضعُ الغَفْلَةَ إلَّا في موضعِها الذي يُذَمُّ فيه البَحْثُ والتَّقَصِّي. والتَّغافُلُ فَهْمٌ للحقيقةِ، وإضرابٌ عن الطَّيْشِ، واستعمالٌ للحِلْمِ، وتسكِينٌ للمَكْرُوهِ، فلذلكَ حُمِدَتْ حالةُ التَّغافُلِ، وذُمَّتِ الغَفْلَةُ[1].

إبطان الجزع وإظهار الصبر

• وكذلكَ القولُ في إظهارِ الجَزَعِ وإبْطانِه، وفي إظهارِ الصَّبْرِ وإبْطانِهِ، فإنَّ إظهارَ الجَزَعِ [60/ب] عند حلولِ المصايبِ مَذْمُومٌ، لأنَّه عَجزَ مُظْهِرُهُ عن مِلْكِ نَفْسِهِ، فأظهرَ أمراً لا فائدةَ فيه، بَلْ هُوَ مَذْمُومٌ في الشَّريعةِ، وقاطعٌ عمَّا يلزمُ مِنَ الأعمالِ، وَعَنِ التَّأَهُّبِ لِمَا يُتَوَقَّعُ حلولُه مِمَّا لعلَّه أشْنَعُ من الأمر الواقعِ، الذي عليه حَدَثَ الجَزَعُ.

---

(1) كما قال الشاعر:

لـيـس الـغـبـيُّ بـسـيّـدٍ فـي قـومِـهِ
لـكـنّ سـيّـدَ قـومِـهِ الـمـتُـغَـابـي

فلمَّا كانَ إظهارُ الجَزَع مَذْمُوماً كانَ ضِدُّهُ محموداً، وهو إظهارُ الصَّبْرِ، لأنَّه مِلْكٌ للنَّفْسِ، واطِّراحٌ لِمَا لا فائدةَ فيه، وإقبالٌ على ما يعودُ ويَنْفَعُ فِي الحال، وفي المُسْتأنَفِ.

وأمَّا استبطانُ الصَّبْرِ فمَذْمُومٌ، لأنَّه ضَعْفٌ في الحِسِّ، وقَسْوةٌ في النَّفْسِ، وقِلَّةُ رحمةٍ، وهذه أخلاقُ سوءٍ لا تكونُ إلَّا في أهلِ الشَّرِّ، وخُبْثِ الطَّبِيعةِ، وفي النُّفوسِ السَّبُعِيَّةِ الرَّدِيَّةِ.

فلمَّا كانَ ذلكَ نتيجةَ ما ذكرنا؛ كانَ ضِدُّهُ محموداً، وهو استبطانُ الجَزَعِ، لما في ذلكَ من الرَّحْمةِ والشَّفَقَةِ، والفَهْمِ بقَدْرِ الرَّزِيَّةِ.

فصَحَّ بهذا أنَّ الاعتدالَ هو أنْ يكونَ المَرْءُ [61/أ] جَزُوعَ النَّفْسِ، صَبُورَ الجَسَدِ، بمعنى: ألَّا يَظْهَرَ في وَجْهِهِ ولا في جوارحِهِ شَيءٌ مِنْ دلائِلِ الجَزَعِ.

لو علم ذو الرأي الفاسد

• ولو عَلِمَ ذُو الرأي الفاسِدِ ما اسْتَضرَّ به من فَسادِ تَدْبِيرِهِ في السَّالِفِ؛ لأنْجَحَ بتَرْكِ اسْتِعْمالِهِ فيما يَسْتأْنِفُ، وبالله التَّوفِيقُ.

فصل

في

تطلع النفس إلى معرفة[1] ما تستر به عنها من كلام مسموع، أو شيء مرئي، أو إلى المدح، وبقاء الذكر

---

(1) في (ز): المعرفة، وما أثبته من (ش).

أمران لا يسلم منهما إلا ساقط الهمة

• هذانِ أمرانِ لا يكادُ يَسْلَمُ منهما أحدٌ إلَّا ساقِطُ الهمَّةِ جدّاً، أو مَنْ راضَ نفسَهُ الرِّياضةَ التَّامَّةَ، وقَمَعَ قوَّةَ نفسِهِ الغَضَبِيَّةَ قَمْعاً كاملاً.

مداواة شره النفس إلى سماع ما استتر عنها

• ومداواةُ شَرَهِ النَّفْسِ إلى سماعِ كلامٍ تُستِّرَ بهِ عَنْهَا، أو رُؤيةِ شيءٍ اكْتُتِمَ به دُونَها؛ أن يُفكِّرَ فيما غابَ عنها مِنْ هذا النَّوعِ في غيرِ موضعِهِ الذي هو فيه، بلْ في أقْطارِ الأرضِ المُتَبايِنَةِ، فإنِ اهْتَمَّ بكلِّ ذلك فهو مَجْنُونٌ، تامُّ الجنونِ، [61/ب] عَدِيمُ عقلٍ البَتَّةَ.

وإنْ لم يهتَمَّ لذلك فهل هذا الذي اختفى[1] به عنه إلَّا كسائِرِ ما غابَ عنه منه، سواءً بسواءٍ[2]، ولا فرقَ؟!.

---

(1) في (ز): اختفي، والمثبت من (ش).

(2) في (ز): سواءً سواءً، والمثبت من (ش).

ثُمَّ ليَزِدِ احتجاجاً على هواهُ، فلْيَقُلْ بلسانِ عَقْلِهِ لنَفْسِهِ: يا نَفْسُ أَرَأَيْتِ لَوْ لَمْ تَعْلَمِي أنَّ هاهنا شَيئاً أُخْفي عنكِ أَكُنْتِ تَتَطَلَّعِينَ إلى معرفة ذلك؟!.

فلا بُدَّ من: لا!.

فليَقُلْ لنَفْسِهِ: فكُوني الآنَ كما كنتِ تَكُونِينَ لو لم تَعْلَمي أنَّ هاهُنا شيئاً سُتِرَ عنك، فتَرْبَحي الرَّاحةَ، وطردَ الهَمِّ، وأَلَمَ القلَقِ، وقُبْحَ صِفَةِ الشَّرهِ، وتلكَ غنائِمُ كثيرةٌ، وأرباحٌ جليلَةٌ، وأَغْراضٌ فاضِلَةٌ سَنِيَّةٌ، يرغبُ العاقِلُ فيها، ولا يَزْهَدُ فيها إلَّا تامُّ النَّقْصِ.

مداواة الرغبة في الذكر

• وأمّا مَنْ علَّقَ وَهْمَهُ وفِكْرَهُ بأنْ يَبْعُدَ اسمُهُ في البلادِ، ويَبْقى ذِكْرُهُ على الدُّهور، فلْيتفكَّرْ في نفسِهِ، ولْيَقُلْ لها: يا نفْسُ أرأَيتِ لو ذُكِرْتِ بأفضلِ الذِّكْرِ في جميعِ أقطارِ المَعْمُورِ أبدَ الأَبدِ، إلى انقضاءِ الدُّهورِ، ثُمَّ لم يَبْلُغْني ذلكَ، [62/أ] ولا عَرَفْتُ به، أكانَ لي في ذلكَ سُرورٌ أو غِبْطَةٌ أصلاً؟!.

فلا بدَّ من لا! ولا سبيلَ إلى غيرِها البَتَّةَ، فإذا صَحَّ ذلك وتُيُقِّنَ؛ فليعلَمْ يقيناً أنَّه إذا ماتَ فلا سبيلَ له إلى

عِلْم أنَّهُ يُذكَرُ، أو أنَّه لا يُذْكَرُ، وكذلك إذا كانَ حيّاً إذا لم يَبْلُغْهُ.

● ثُمَّ ليتفكَّر أيضاً في معنَيَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أحدهما: كثرةُ مَنْ خَلَا مِنَ الفضلاءِ مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ صلى الله عليهم وسلم أوّلاً، الذينَ لم يَبْقَ لهم على أَدِيمِ الأرضِ عِنْدَ أحدٍ من النَّاسِ اسمٌ، ولا رَسْمٌ، ولا ذِكرٌ، ولا خَبَرٌ، ولا أَثَرٌ، بوَجْهٍ من الوُجُوهِ.

ثُمَّ مِنَ الفضلاءِ الصَّالحِينَ من أصحابِ الأنبياءِ، والزُّهادِ، ومِنَ الفَلاسِفَةِ، والعُلَماءِ، والأخيارِ، ومُلُوكِ الأُمَمِ الدَّاثِرَةِ، وبُناةِ المُدُنِ الخَالِيَةِ، وأَتْباعِ الملوكِ الَّذينَ أيضاً قد انقطعتْ أخبارُهُم، فلم يبقَ لهم عند أحدٍ عِلْمٌ، ولا لأحدٍ بهم معرفةٌ أصلاً البَتَّةَ؛ فهل ضَرَّ مَنْ كانَ فاضلاً منهم ذلكَ، أو نَقَصَ مِنْ فضائِلِهِم، أو طَمَسَ من مَحاسِنِهِم، أو حَطَّ [62/ب] درجَتَهُم عند بارِئِهم ﷻ؟!.

● ومن جَهِلَ هذا الأمرَ، فلْيعلَمْ أنَّه ليسَ في شيءٍ من الدُّنيا خَبَرٌ عن ملكٍ [مِنْ ملوكِ الدنيا و][1] الأجيالِ

---

(1) زيادة من (ش).

السَّالفةِ أبعدَ ممَّا بأيدي النَّاسِ مِنْ تاريخِ ملوكِ بني إسرائيلَ فَقَطْ.

ثُمَّ ما بأَيْدِينَا من تاريخِ ملوكِ يونانَ والفرسِ، وكلُّ ذلك لا يتجاوَزُ ألفي عامٍ، فأينَ ذِكْرُ من عَمَّرَ الدُّنيا قبلَ هؤلاء؟! أليسَ قد دَثَرَ، وفَنِيَ، وانْقَطَعَ، ونُسِيَ البَتَّةَ؟! وكذلكَ قالَ تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 162] وقالَ تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 38] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: 9].

فهل الإنسانُ ـ وإنْ ذُكِرَ برهةً من الدَّهرِ ـ إلَّا كمَنْ خلا قَبْلُ مِنَ الأممِ الغابِرَةِ الَّذينَ ذُكِرُوا ثم نُسُوا جُمْلَةً؟!.

الرغبة في الذكر عند الله هو النافع وما سواه غرور

• ثُمَّ ليتفكَّرِ الإنسانُ فِيمَنْ ذُكِرَ بخيرٍ أو بِشَرٍّ؛ هل يزيدُهُ ذلكَ عند الله تعالى درجةً، أو يُكْسِبُهُ فضيلةً، لم يكن حازها بفعله أيَّامَ حياته.

فإذْ هذا كما قُلْنا؛ فالرَّغْبةُ في الذِّكْرِ رغبةُ غرورٍ لا معنى له، ولا فائدةَ فيه [63/أ] أصلاً، لكن إنَّما ينبغي

أن يَرْغَبَ العاقلُ في الاستكثارِ من الفضائلِ، وأعمالِ البِرِّ، التي يَسْتَحِقُّ مَنْ هي فيه الذِّكْرَ الجميلَ، والثَّناءَ الحَسَنَ، والمَدْحَ، وحميدَ الصِّفَةِ، فهي التي تُقَرِّبُهُ مِنْ بارئِهِ تعالى، وتَجْعَلُهُ مذكوراً عنده ﷻ الذِّكْرَ الذي ينفعه، ويحصلُ على فائِدَتِهِ، ولا يَبِيدُ أَبَدَ الأبدِ، وبالله التَّوفيقُ.

شكر المحسن فرض واجب

• شُكْرُ المُحْسِنِ فرضٌ واجبٌ[1]، وإنَّما ذلِكَ بالمُقَارَضَةِ لَهُ بِمِثْلِ ما أحسنَ فأكثرَ، ثُمَّ التَّهَمُّمُ بأمورِهِ، والتَّأَتِّي بحُسْنِ الدِّفاعِ عَنْهُ، ثُمَّ بالوفاءِ له حيّاً ومَيْتاً، ولِمَنْ يتَّصِلُ به من ساقَةٍ[2]؛ وأهلٍ كذلكَ، ثُمَّ بالتّمادي[3] على وُدِّهِ ونصيحَتِهِ، ونَشْرِ محاسِنِهِ بالصِّدقِ، وطَيِّ مساويه، ما دُمْتَ حيّاً، وتَوْريثِ ذلك عَقِبَكَ وأهلَ وُدِّكَ[4].

---

(1) قال رسول الله: «**مَنْ لا يَشْكُر النَّاسَ؛ لا يَشْكُر اللهَ**» رواه الترمذيُّ (1954).

(2) في ش: (شأفة)، وشأفة الرجل: أهله وماله.

(3) **التمادي**: الاستمرار.

(4) قال رسول الله ﷺ: «**إن أبرَّ البِرِّ صِلةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه**» رواه مسلم (2552).

ليس من الشكر العون على الآثام

● وليسَ مِنَ الشكرِ عَونُهُ على الآثامِ، وتَرْكُ نصيحَتِهِ في ما يُوتِغُ[1] دِينَهُ ودُنْياهُ، بل مَنْ عاونَ مَنْ أحسنَ إليه على باطلٍ؛ [63/ب] فقد غَشَّهُ، وكَفَرَ إحسانَهُ، وظَلَمَهُ، وجَحَدَ إِنْعامه.

● وأيضاً: فإنَّ إحسانَ الله تعالى وإِنْعامَهُ على كلِّ أحدٍ أعظمُ وأقدمُ وأَهْنَأُ من نعمةِ كلِّ مُنْعِمٍ دونَهُ، فهو تعالى الذي شقَّ لنا الأبصارَ النَّاظِرَةَ، وفَتَقَ فينا الآذانَ السّامِعةَ، ومَنَحنا الحواسَّ الفاضِلَةَ، ورزَقَنا النُّطْقَ والتّمْيِيزَ؛ اللَّذَيْنِ بهما استأْهَلْنا أنْ يُخاطِبَنا، وسَخَّرَ لنا ما في السماءِ والأرضِ من الكواكبِ والعناصر، ولم يُفَضِّلْ علينا مِنْ خَلْقِهِ شَيْئاً غيرَ ملائِكَتِهِ المُقَدَّسِينَ، الَّذينَ همْ عُمَّارُ السَّماواتِ فَقَطْ، فأينَ تقعُ نِعَمُ المُنْعِمينَ مِنْ هذه النِّعَمِ؟!.

● فمن قدَّرَ أنَّه يَشكُرُ مُحْسِناً إليه بمساعدته على باطلٍ، أو بمُحَابَاتِهِ فيما لا يجوزُ؛ فقد كَفَرَ نعمةَ أعظمِ

---

(1) **يوتغ**: يُفسِدُ ويُهْلِكُ.

المُنْعِمينَ عليه، وجَحَدَ إحسانَ أجلِّ المحسنينَ إليه، ولم يَشْكُرْ وليَّ الشُّكْرِ حقّاً، ولا حَمِدَ أهلَ الحَمْدِ أصلاً، وهو الله تعالى.

• ومَنْ حالَ بين المُحْسِنِ إليه وبينَ الباطلِ، وأَقَامَهُ على مُرِّ الحقِّ؛ فقد شَكَرَهُ حقّاً، وأدَّى واجبَ [64/أ] حقِّه عليه مُسْتَوْفًى، ولله الحَمْدُ أوَّلاً وآخراً، وعلى كلِّ حالٍ.





[فصل][1]

في

حضور مجالس العلم

(1) زيادة من الطبعة الجمالية.

احضر مجلس العلم
على نية الاستفادة

• إذا حضرتَ مَجْلِسَ علم فلا يكُنْ حضُورُكَ إلَّا حضورَ مُسْتَزيدٍ عِلْماً وأجْراً، لا حضورَ مُسْتَغْنٍ بِمَا عندكَ، طالبَ عَثْرَةٍ تُشِيْعُها، أو غريبَةٍ تُشَنِّعُها، فهذه أفعالُ الأراذلِ، الَّذين لا يُفْلِحُونَ في العِلْم أبداً.

فإذا حضَرْتَها على هذه النِّيَّةِ، فقد حَصَّلتَ خيراً على كلِّ حالٍ، فإنْ لم تحضُرْها على هذه النِّيَّةِ، فجلوسُكَ في مَنْزِلكَ أروحُ لبَدَنِكَ، وأكرمُ لخُلُقِكَ، وأسلمُ لدِينِكَ.

أحوال طالب العلم
وصفة سؤال المتعلم

• فإذا حَضَرْتَها ـ كما ذكرنا ـ فالْتَزِمْ أحدَ ثلاثةِ أوجهٍ، لا رابعَ لها، وهي:

• **إمَّا أنْ تَسْكُتَ سكوتَ الجُهَّالِ**، فتحصلَ على أجرِ النِّيَّةِ في المُشَاهَدةِ، وعلى الثَّناءِ عليكَ بِقِلَّةِ الفُضُولِ، وعلى كَرَمِ المُجالَسَةِ، ومَودَّةِ مَنْ تُجالس.

• فإن لم تفعلْ ذلكَ؛ **فاسألْ سؤالَ المُتَعَلِّم**،

فتحصلَ على هذه الأربعِ المَحَاسنِ، وعلى خامسةٍ؛ وهي استزادةُ [64/ب] العِلْمِ.

وصفةُ سؤالِ المُتَعَلِّم هو أنْ تسأَلَ عمَّا لا تَدْرِي، لا عمَّا تدري، فإنَّ السؤالَ عمَّا تدريهِ سُخْفٌ وقِلَّةُ عقلٍ، وشُغْلٌ لكلامِكَ، وقَطْعٌ لزَمانِكَ بما لا فائدةَ فيه؛ لا لكَ ولا لغيْرِكَ، وربَّما أدَّى إلى اكتسابِ العداواتِ، وهو بَعْدُ عَيْنُ الفضولِ، فيَجِبُ عليكَ ألَّا تكونَ فُضُولِيّاً؛ فإنَّها صفةُ سوءٍ.

فإنْ أجابَكَ الذي سألتَ بما فيه كفايةٌ لكَ فاقْطَعِ الكلامَ، وإنْ لم يُجِبْكَ بما فيه كفايةٌ، أو أجابَكَ بما لم تَفْهَمْ فقُلْ له: لم أفهمْ، واسْتَزِدْهُ؛ فإنْ لم يَزِدْكَ بياناً، وسكتَ، أو أعادَ عليكَ الكلامَ الأوَّلَ، ولا مَزِيدَ؛ فأمسكْ عَنْهُ، وإلَّا حَصَلْتَ على الشَّرِّ والعداوةِ، ولم تَحْصُلْ على ما تُرِيدُ من الزِّيادةِ.

● والوجهُ الثالثُ؛ **أن تُراجعَ مراجعةَ العالِمِ**، وصفةُ ذلكَ أنْ تعارِضَ جوابَهُ بما يَنْقُضُهُ نَقْضاً بيِّناً، فإنْ لم يَكُنْ ذلك عِنْدكَ، وَلَمْ يكنْ عندكَ إلَّا تكرارُ قَوْلِكَ، أو المُعَارَضَةُ بما لا يراهُ خَصْمُكَ [65/أ] معارضةً فأَمْسِكْ،

فإنَّكَ لا تحصُلُ ـ بتكرارِ ذلكَ ـ على أجرٍ زائدٍ، ولا على تعليمٍ، ولا على تعلُّمٍ، بل على الغَيْظِ لك ولِخَصْمِكَ، والعداوةِ التي رُبَّما أدَّتْ إلى المَضرَّاتِ.

إياك وسؤال المعنت

• وإيَّاكَ وسؤالَ المُعَنِّتِ، ومراجعةَ المُكابِرِ، الَّذي يطلبُ الغَلَبَةَ بغيرِ علم، فهما خُلُقا سوءٍ، [و][1] دليلانِ على قِلَّةِ الدِّينِ، وكَثْرَةِ الفُضُولِ، وضَعْفِ العَقْلِ، وقوّةِ السُّخْفِ، وحَسْبُنا اللهُ، ونِعمَ الوكيل.

لا تقبل كلاماً أو تردده حتى تقف على حقيقته

• وإذا وَرَدَ عليكَ خطابٌ بلسانٍ، أو هَجَمْتَ على كلامٍ في كتابٍ، فإيّاكَ أن تقابِلَهُ مقابلةَ المُغاضَبَةِ الباعِثَةِ على المُغَالبةِ قبلَ أن تَتَيَقَّنَ بطلانَهُ ببرهانٍ قاطعٍ.

وأيضاً؛ فلا تُقْبِلْ عليه إقبالَ المُصَدِّقِ به، المُسْتَحْسِنِ إيَّاه قبلَ عِلْمِكَ بصِحَّتِهِ ببرهانٍ قاطعٍ، فتَظْلِمَ

(1) زيادة يقتضيها السياق.

في كلا الوجهَيْنِ نفسَكَ، وتَبْعُدَ عن إدراكِ الحَقيقَةِ، ولكنْ أَقْبِلْ عليه إقبالَ سالمِ القلبِ عن [65/ب] النِّزاعِ عنه، والنُّزوعِ إليهِ، لكنْ إقبالَ مُريدٍ حَظَّ نفسِهِ في فَهْمِ ما سَمِعَ ورأى، والتَّزَيُّدِ به عِلْماً، وقَبُولِهِ إن كان حَسَناً، أو ردِّهِ إنْ كانَ خطأً، فمضمونٌ لكَ ـ إذا فعلتَ ذلكَ ـ الأجرُ الجزيلُ، والحَمْدُ الكثيرُ، والفَضْلُ العَمِيمُ، مع الوقوفِ على الحقيقةِ في أغلب الأَمْرِ.

القناعة غنًى وعزّة

• مَنِ اكتفى بقَلِيلِهِ عن كثيرِ ما عندكَ؛ فقد ساوَاكَ في الغِنى، ولو أنَّكَ قارونُ، حتَّى إذا تصاوَنَ في الكَسْبِ عمّا تَشْرَهُ أنتَ إليْهِ فقَدْ حصَلَ أغنى مِنْكَ بكثيرٍ.

ومن ترَفَّعَ عمَّا تَخْضَعُ إليه من أمورِ الدُّنْيا؛ فهو أعزُّ منكَ بكثيرٍ.

فرض على الناس
تعليم الخير والعمل به

• فَرْضٌ على النَّاسِ تعليمُ الخيْرِ، والعملُ به، فَمَنْ جَمَعَ الأمرينِ فقد اسْتَوفَى الفَضِيلَتَيْنِ معاً، ومن عَلِمَهُ

ولم يَعْمَلْ به؛ فقد أحسنَ في التَّعْليم، وأساءَ في تركِ العملِ به، فخَلَطَ عملاً صالحاً، وآخرَ سيِّئاً، وهو خيرٌ من آخرَ لم يعلَمْ ولم يعْمَلْ به، فهذا الَّذي لا خيرَ فيه؛ أمثلُ حالةً، وأقلُّ [66/أ] ذمّاً؛ من آخرَ ينهى عن تعليمِ الخَيْرِ، ويَصُدُّ عنه.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يشترط فيه العمل

• ولو لمْ يَنْهَ عَنِ الشَّرِّ إلَّا مَنْ ليسَ فيه منه شيءٌ، ولا أمرَ بالخيرِ إلَّا مَنِ استوعَبَهُ؛ لما نهى أحدٌ عَنْ شَرٍّ، ولا أمرَ بخيرٍ، بعدَ النَّبِيِّ ﷺ، وحَسْبُكَ بمنْ أدَّى رأيُهُ إلى هذا فساداً، وسوءَ طَبْعٍ، وذَمَّ حالٍ، وبالله التَّوْفِيقُ.

• **قالَ أبو مُحَمَّدٍ**[1] رضي الله عنه: فاعترضَ هاهنا إنسانٌ، فقالَ: كانَ الحَسَنُ رضي الله عنه[2] إذا نهى عَنْ شيءٍ لا يَأْتِيهِ

---

(1) هو المؤلف.

(2) هو: الحسن البصريُّ، وتقدّمت ترجمته ص (44).

أصْلاً، وإذا أمرَ بشيءٍ كانَ شديدَ الأخذِ به. وهكذا تكونُ الحِكْمَةُ.

وقد قِيلَ: أقبحُ شيءٍ في العالم أنْ يأمُرَ بشيءٍ لا يأْخُذُ به في نفسه، أوْ يَنْهى عن شيءٍ يَسْتَعْمِلُهُ.

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: كَذَبَ قائلُ هذا، وأقبحُ منه مَنْ لَمْ يأْمُرْ بخيرٍ، ولا نهى عن شَرٍّ، وهو مع ذلكَ يعملُ الشَّرَّ، ولا يعملُ الخيْرَ.

قالَ أبو مُحمَّدٍ: وقد قالَ أبو الأَسودِ الدُّؤَلي[1]:

[الكامل]

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِي مِثْلَهُ
عارٌ عليْكَ إذا فعلتَ عَظِيمُ
وابْدأْ بِنَفْسِكَ فانْهَهَا عَنْ غَيِّها
فإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فأنتَ حَكِيمُ
فهناكَ يُقْبَلُ إنْ وَعَظْتَ ويُقْتَدى
بالعِلْمِ مِنْكَ ويَنْفعُ التَّعْلِيمُ

---

(1) ديوانه، ص(165)، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط دار الكتاب الجديد ـ بيروت 1974م، وتنسب إلى المتوكل الليثي، وهي في ديوانه (283).

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: إنْ كانَ أَبو الأَسودِ إنَّما قَصدَ بالإنكارِ المَجيءَ بما نهى عنه المرءُ، وأنَّه يَتضاعَفُ قُبْحُهُ منه مع نَهْيِهِ عنه؛ فقد أحْسَنَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44] ولا يُظَنُّ بأبي الأسودِ إلَّا هذا.

وأمَّا أنْ يكونَ نهى عن النَّهْيِ عنِ الخُلُقِ المَذْمُومِ، فنَحنُ نُعِيذُهُ باللهِ مِنْ هذا؛ فَهُوَ فِعْلُ مَنْ لا خَيْرَ فيه.

وقد صحَّ عن الحَسَنِ أنَّه سَمِعَ إنساناً يقولُ: لا يَجبُ أن يَنْهى عَنِ الشَّرِّ إلَّا مَنْ لا يَفْعَلُهُ. فقالَ الحَسَن: وَدَّ إبليسُ أنَّه ظَفرَ مَنَّا بهذه؛ حتَّى لا يَنْهى أحدٌ عنْ منْكرٍ، ولا يأْمُرَ بمَعْرُوفٍ!.

قالَ أبو مُحَمَّدٍ: صَدَقَ الحَسَنُ، وهو قولُنا آنفاً.

جعلنا اللهُ مِمَّن يُوَفَّقُ لِفْعلِ الخَيْرِ، والعمل بِهِ، ومِمَّن [67/أ] يُبْصِرُ رُشْدَ نفسِهِ، فما أحدٌ إلَّا لهُ عُيوبٌ؛ إذا نَظَرَها شَغَلَتْهُ عَنْ غيرِهِ، وتوفَّانا على سُنَّةِ مُحَمَّدٍ آمِين، آمين، ربَّ العالَمِينَ.

* * *

تَمَّ كتابُ مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق، والحَمْدُ لله.

تعريف بابن حزم الأندلسي

هو أبو محمّدٍ عليُّ بنُ أحمدَ بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الإمام الحافظ الفقيه، صاحبُ التصانيف الرائعة، والمؤلّفات البديعة.

ولد القرطبي سنة أربع وثمانين وثلاثمئة للهجرة.

كان والدُه من كبراء أهلِ قرطبة، عملَ وزيراً في الدولة العامرية، وكذلك عمل أبو محمد وزيراً في شبابه، وتعلّم في حداثته الأدبَ، والشعرَ، والمنطقَ، والفلسفة، وكان مفرِطَ الذكاءِ، عاليَ الهمّةِ، كبيرَ النفسِ.

ثم أرادَ اللهُ له أن يتفقّه في علم الشريعة، فدخلَ المسجدَ قبلَ صلاةِ العصر ليشهدَ جنازةً، فجلسَ ولم يركع ركعتين، فقال له رجل: قم فصلِّ تحيةَ المسجدِ، وكان عمره حينئذٍ ستّاً وعشرين سنةً، قال: فقمتُ وركعتُ، فلّما رجعنا مِنْ دفن الجنازةِ بعد العصرِ دخلتُ المسجدَ، فبادرتُ بالركوعِ، فقيل لي: اجلسْ، ليسَ ذا

وقتُ صلاةٍ، فانصرفتُ وقد لحقني ما هانتْ به عليّ نفسي، وقلت للأستاذ الذي ربّاني: دُلَّني على دار الفقيه أبي عبد الله بن دحون، فقصدتُه، وأخبرتُه بما جرى، وطلبت منه أن أقرأ عليه الفقه، فدلّني على (موطأ مالك) فبدأتُ بقراءته عليه، وتابعتُ قراءتي عليه نحواً من ثلاثة أعوام. وقرأ على غيره من الأئمة.

وبدأ بدراسة كتب الشريعة من القرآن والحديث والفقه، حتى أصبحَ بها إماماً كبيراً، وكان ميّالاً للمذهب الشافعي، ثم تابعَ داودَ الظاهري،ثم أدّاه اجتهاده وعِلْمُه إلى الاستقلال بالرأي، ومخالفة الأئمة بنفي القياس ومسائل أخرى، وألّف في ذلك، ودافعَ عن آرائه بكلِّ قوةٍ، بحدّةٍ أحياناً.

وكان له اطلاع واسعٌ على المصادر الإسلامية وغيرها، قوي العبارة، فصيح اللسان، يجيدُ النظمَ والنثرَ، وترك وراءه مصنّفاتٍ جليلة، نقمها عليه بعضُ الأئمة وهجروها، وبعضهم تبنّاها واستفاد منها ونقدها، إلّا أنّه مشهودٌ له بالدين والاستقامة والفضل.

قال الإمام صاعد بن أحمد الأندلسي: كان ابنُ حزمٍ

أجمعَ أهلِ الأندلسِ قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعَهم معرفةً، مع توسّعِهِ في علم اللسان، ووفورِ حظّه من البلاغةِ والشعرِ، والمعرفةِ بالسير والأخبار، أخبرني ابنه الفضل أنّه اجتمعَ عنده بخطّ أبيه أبي محمد من تواليفه أربعمئةِ مجلّدٍ تشتملُ على قريبٍ من ثمانينَ ألفَ ورقةٍ.

وقال أبو عبد الله الحُميدي: كان ابنُ حزم حافظاً للحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، متفنّناً في علوم جمّة، عاملاً بعمله، ما رأينا مثله فيما اجتمعَ له مِنَ الذكاءِ، وسرعةِ الحفظِ، وكرمِ النفسِ والتديّن، وكان له في الأدبِ والشعر نَفَسٌ واسعٌ، وباعٌ طويل، وما رأيتُ مَنْ يقولُ الشعرَ على البديهةِ أسرعَ منه، وشِعْرُه كثيرٌ، وقد جُمِعَ على حروف المعجم.

ترك وراءه زُهاء ثمانين مصنفاً ويزيدُ، وكلّها نافعةٌ مفيدةٌ، ولا يَسْلَمُ أحدٌ من الخطأ أو الاعتراض، ولكنّه في كتبه كان قاسياً على مَنْ يخالِفُه، فمن أراد أن يعرفَ حِدّة لسانه الذي وُصِفَ بأنّه قرينُ سيفِ الحجّاج بن يوسف الثقفي! فليقرأ كتابه (المحلّى)، ليجدَ ما لا يوصف حِدَّةً وسلاطة لسان.

وقد شُرِّدَ عن وطنه بسبب هذه الحدة والمناظرات مع علماء عصره، وخاصة مع أبي الوليد الباجي، وكان العلماءُ يُحَذِّرون منه الملوكَ والعامة، حيث انتهى به المطاف إلى قرية في بادية لَبْلة حيث توفي هناك سنة ست وخمسين وأربع مئة للهجرة، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن العلم والمعرفة خير جزاء.

أما كتبه فكلها أصيلة جليلة، مليئة بالنصوص والآثار، وله فيها آراء تفرّدَ بها، وشذّ بها عن طريقة العلماء، ولكنّها لا تحطُّ مِن قدره، ولا تقلِّلُ من قيمتها؛ بل إنّها تُذكي القراء للبحث، وتشحذ الهمم للتنقيب، ومن أمتعِ الكتب التي أفردها للعلم والمعرفة هذا الكتاب (مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق).

فيجدر بالناشئةِ والشّبان خاصةً وأهلِ الثقافة والعلم عامة أن يقرؤوا هذا الكتاب، ويأخذوا من معانيه الرائقة، سائلاً الله تعالى أن يتغمّد بواسع رحمته هذا الإمامَ الفذ، الذي أخلص علمه لله تعالى، كما أسأله تعالى أن ينفعنا بعلمه، وينفعَ كلَّ قارئ لهذا الكتاب، إنّه ولي التوفيق.



أشهر المدن الأندلسية



السيرة الذاتية لمحقق الكتاب

- محمد مطر سالم بن عابد الكعبي.

- وُلد بدولة الإمارات العربية المتحدة في مستشفى الواحة - (مدينة العين) بتاريخ (16/ 7/ 1966م).

- درس في المدرسة العسكرية من الصف الأول الابتدائي إلى الصف الثالث الثانوي علمي، وكان تقديرُه امتيازاً في مراحل الدراسة، وترتيبه الأول.

- حصل على شهادة الليسانس في الدراسات الإسلامية والعربية من كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي سنة (1994م).

- نال شهادة الماجستير في تخصص الفقه وأصوله من جامعة محمد الخامس - المملكة المغربية سنة (1998م).

- حاز على شهادة الدكتوراه في الآداب تخصص الدراسات الإسلامية، وحدة البحث في مناهج العلوم

الإسلامية بدرجة امتياز من جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية سنة (2002م)، مع التوصية بالطبع.

- تقلّد مناصبَ قياديةً مختلفةً في صفوف القوات المسلحة.

- حصل على جائزة الشيخ راشد للتفوق العلمي عن شهادة الماجستير.

- دخل عدّة دورات عسكرية متنوعة حصل فيها على تقدير امتياز (الأول).

- عمل ضابطاً بالقوات المسلحة الإماراتية من رتبةِ مرشَّحٍ إلى رتبةِ مقدّم.

- عمل في بريطانية لمدة (5) سنوات.

- كُرِّم عن شهادة الدكتوراه (جائزة الشيخ راشد للتفوق العلمي).

- عكف على دراسة الخط العربي، وبرع في خَطَّي الرقعة والنسخ، إلى جانب الخط الفارسي والديواني والثلث.

- له اهتمامات بالنحو، وقواعد العربية، والشعر العربي؛ خاصّةً الجاهلي منه.

ـ لاعبٌ لكرة الطائرة، وكذلك السباحة، والرماية، وركوب الخيل، والغطس.

ـ مدير عام الهيئة العامة للشؤون الإسلامية والأوقاف.

ـ رئيس مجلس إدارة دار زايد للثقافة الإسلامية.

ـ نائب رئيس مجلس اللجنة الوطنية للمؤتمرات.

ـ عضوٌ في مجمع الفقه الإسلامي.

ـ رئيس لجنة خطبة الجمعة بالهيئة العامة.

ـ عضوٌ في لجنة تحرّي الهلال.

ـ رئيس لجانٍ فرعيّةٍ مختلفةٍ.

ـ رئيس لجنة اختبارات الوعّاظ والأئمة بالهيئة العامة.

ـ عضو في مجلس إدارة مركز جامع الشيخ زايد الكبير.

ـ مبدؤه في الحياة: ألّا يفوقه أحدٌ أدباً ولُطفاً واحتراماً.

ـ له من الكتب:

1 ـ منهج الاستدلال الفقهي عند ابن حزم وابن عبد البر.

2 ـ العنف في التراث الإسلامي: عبرة وذكرى.

3 ـ دور المرأة في بناء المجتمع.

4 ـ نظرات في الدين والفكر والمجتمع.

5 ـ مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق، لابن حزم الأندلسي (تحقيق).

6 ـ مآثر الأعلام.

7 ـ لقوم يتفكرون.




الفهارس العامة

١ ـ فهرس الأيات القرآنية

٢ ـ فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



٣ ـ فهرس الأعلام



٤ ـ فهرس الأمم والقبائل



٥ ـ فهرس البلدان



٦ ـ فهرس الشعر

المطلع	القافية	البحر	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
ليس الغبي	المتغابي	الكامل	1	ـ	194
إذا لم	اجتهاده	الطويل	1	ـ	44
إنما العقل	سورُ	مجزوء الرمل	9	ابن حزم	187
زمام	باسُ	المتقارب	3	ابن حزم	189
لاتنه	عظيمُ	الكامل	3	أبوالأسودالدؤلي	214
أأنثر	الغنمْ	الطويل	8	الشافعي	41



٧ ـ المصطلحات التي شرحها ابن حزم



٨ ـ فهرس الموضوعات

فصل في العلم

فصل في الأخلاق والسير

فصل في الصَّداقَةِ والنَّصِيحَةِ

فصل في أنواعِ المحبَّةِ

فصل في أنواع صباحة الصور

فصل فيما يتعامل به الناس في الأخلاق

فصل في مداواةِ أدواء الأخلاق الفاسدة

فصل في غرائب أخلاق النَّفس

فصل في تطلع النفس إلى معرفة ما تستر به عنها من كلام مسموع، أو شيء مرئي، أو إلى المدح، وبقاء الذكر

فصلٌ في حضور مجالس العلم



في هذا الكتاب

قال ابن حزم:

● كانت فيّ عيوبٌ، فلم أزل ـ بالرياضة، واطّلاعي على ما قالت الأنبياءُ صلوات الله عليهم والأفاضلُ من الحكماء المتأخرين والمتقدّمين في الأخلاق وفي آداب النفس ـ أعاني مداواتها حتى أعان الله ﷻ على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنِّهِ.

● لأن العاقلَ هو مَنْ ميّزَ عيوبَ نفسِه فغالبَها، وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوبَ نفسه؛ إمّا لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته، وإمّا لأنّه يقدّر أنَّ عيوبَه خصالٌ، وهذا أشدُّ عيبٍ في الأرضِ.

● فإن أُعجبتَ بعقلك ففكّر في كلِّ فكرةِ سوءٍ تمرُّ بخاطرك، وفي أضاليلِ الأماني الطائفةِ بكَ، فإنّك تعلم نقصَ عقلِكَ حينئذٍ.

● فإن لم يكن لك عدوٌّ فلا خيرَ فيكَ، ولا منزلةَ أسقطُ من منزلةِ من لا عدوَّ له، فليست إلا منزلةَ مَنْ ليس لله تعالى عنده نعمةٌ يُحْسَدُ عليها، عافانا الله.

● «لا أبالي فيما أعتقدُه حقّاً عن مخالفةِ مَنْ خالفتُه، ولو أنّهم جميعُ مَنْ على ظهرِ الأرضِ.

● ورأيت ممن طالع العلوم، وعرف عهود الأنبياء عليهم السلام ووصايا الحكماء، وهو لا يتقدّمه في خبثِ السيرة وفساد العلانية والسريرة شرارُ الخلق.